العلم الثقافي

المدير: عبد الله البقالي

سنة: 53
سنة التأسيس: 1969/2/7
الخميس 2 فبراير 2023
الموافق 11 من رجب 1444

10 ، شارع زنقة المرج حسان الرباط

Bach1969med@gmail.com

مُذكِّرات

لم أكد أضع الكلمة الأولى في افتتاحية هذا العدد ، حتى اسْتعدتُ يدي أشدَّ بياضا من الورقة البيضاء ، لا لشيء إلا لأنَّ خاطراً لسعني وأوحى لي أن أتركهم يأخذون حصَّتهم من كتابة الافتتاحية ،إنَّهم/هن الرائدات والرواد الذين سبقونا إلى هذا الطريق بينما كنا لا نزال في أول الطريق ، رائدات ورواد الإعلام الثقافي الذين زادهم الاشتغال بالأدب وزنا يُقاس بميزان الذهب ، أولئك الذين أفنوا حياتهم في الكتابة ، لا يجب أن يكون الجزاء نظير ما أسْدوه للثقافة المغربية التشطيب والإلغاء ، بل الأجدر أن نسْتحضر بين حين وآخر ذكراهم ونُرسِّخها بقوة الفعل ،ليس فقط بالاقتصار على رفع الأكف بالضراعات والدعاء ،ولكن بإعادة نشر أعمالهم التي قد لا نجد اليوم ، مثيلا لأسلوب كتابتها البليغ وقوتها في إبداء الرأي ، عسى أنْ لا نُقلق راحتهم الأبدية ، ويقبلوا العودة للعيش بيننا للحظات بعد أن ذاقوا نعمة الخلود في دار البقاء !

محمد بشكار
bachkar_mohamed@yahoo.fr

الإلغي يذكرني من وراء الغيب بالعهد !

كتبتها: الدكتورة آمنة اللوه*

م من مميزات الجلسات التي كانت تجمعني والأستاذ إبراهيم الإلغي(1)أنها جلسات ذات نفع وفائدة بالإضافة إلى مسحتها الأدبية التي لم تكن تخلو من أبيات شعرية) يرتجلها الإلغي للمناسبة.

في إحدى هذه الجلسات، وكانت في طنجة، وفي هذه الدار (2) بالذات، فاجأني بقوله: أتريدين بيتاً في الجنة ؟ أجبته وأنا جذلى: ومن منا لا تتمنى أن يكون لها بيت في الجنة. حتى المكرمون في القرآن الكريم يتمنون ذلك، فهذه امرأة فرعون تناجي ربها: (رب ابن لي عندك بيتا في الجنة)، قال والرضى باد على وجهه: إن كنت تريدين ذلك حقا، فأوقفي هذه الدار أو قصرك الصغير هذا على القرآن الكريم والدراسات الإسلامية، وبذلك تضمنين لنفسك بيتا في الجنة وتؤمنين لنفسك صدقة جارية تنفعك في اليوم الذي لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.. فوجئت بهذا الاقتراح، فقد استشعرت عظمة الفكرة، ولم أكن أنتظرها فكان تعليقي: نِعْمَ ما أشرت به عليَّ.. وقبل أن أتمَّ كلامي، أسرع يقول: إذاً فأنت اقتنعت بالفكرة، فعلى بركة الله....

كنت أعرف أنه قبل ذلك كان يسعى لتوظيف الدار- موضوع الوقف - في مشروع تجاري تعليمي يُدر علينا دخلا إضافيا، وكنت أعرف أيضا أنه كان يجري اتصالات مع ذوي الخبرة في هذا الشأن... وآخر من اتصل بهم بعض الإخوان العراقيين المقيمين في طنجة من أجل الشراكة في مشروع مدرسي كان يخطط له بجد ..

ولكنه وبكيفية غير منتظرة، تخلى عن الفكرة، فكرة التجارة، ولم يعد يهتم بها، فقد صدم بالنوايا غير الحسنة عند كل الأشخاص الذين فاتحهم في الأمر، واستنتج بحدسه الذي لا يخطئ، أن الحوار معهم لا فائدة ترجى منه، والتعامل معهم لا يجدي، شخصيا أعتقد أن هذه المثبطات التي صدته عن المشروع التجاري يمكن أن تنطبق عليها الحكمة القائلة: رب ضارة نافعة !

انصرف عن المشروع التجاري نهائيا لفترة طويلة إلى أن فاجأني بالسؤال المذكور آنفا !

ومر عام أو أكثر على الاقتراح الذي ألقى إلي به في الجلسة التي احتضنتها طنجة، قضاه في إصلاح البناية وإضافة قاعات جديدة إليها وإعدادها لتكون صالحة للتدريس.

وأدركتنا عطلة الصيف، صيف 1985، قضيناها في إسبانيا وبالتحديد في منطقة الأندلس.. تفقد خلالها كل الأماكن التي سبقت لنا زيارتها في فترات سابقة، ووقف على بعض المآثر العربية وأنشد فيها أشعارا رقيقة مؤثرة يتذكر فيها أياما جميلة قضيناها بين أحضانها في ماضي العمر..هل كان يشعر بدنو الأجل ؟

وكان ينوي زيارة البرتغال أيضا.. ولأن علامات الإعياء كانت بادية عليه، فقد رجوته أن تقتصر عطلتنا على إسبانيا، ونؤجل زيارة البرتغال إلى فرصة أخرى..وقد استجاب لرغبتي..

وعدنا إلى المغرب، وفي طريق العودة إلى الرباط (وكان ذلك يوم الخميس 12شتنبر1985) التفت إلي - وكان يسوق السيارة بنفسه، وسياقة السيارات كانت إحدى هواياته - وقال في نبرة حادة وحاسمة: لا يمكنك أن تتصوري مدى رغبتي في أن أرى المشروع وقد تحقق..لذا فبمجرد وصولنا إلى الرباط سأتصل بالأوقاف لتسوية قضية الوقف المتعلق بدارك بطنجة ، ثم استدرك قائلا: ولكن ليس الآن، فجل الوزارات الآن في عطلة وسأنتظر عودة الموظفين والتحاقهم بمكاتبهم لأباشر الموضوع مع الوزير..وأضاف: البناية وما يحيط بها من حديقة وأراض كلها ستحبس على الدراسات القرآنية، باستثناء الدار الموجودة فوق البنك (كان هناك بنك في الطبقة الأولى) فستبقى على ذمتنا، وذلك من أجل المشاركة في العمل ومراقبة سيره والتأكد من التزام الذين سيشرفون عليه بكل البنود المتفق عليها..أجبته: حسنا ستفعل بإنهاء قضية الوقف، والله يحقق المراد .. ولكني أرى أنه قبل ذلك يجب أن ندرس المشروع جيدا وبكل التفاصيل، ونضع الخطوط العريضة لمنهج العمل التعليمي، عند ذلك نقدم الملف جاهزا وبكل الشروط التي يجب أن تلتزم وزارة الأوقاف. قاطعني بحدة: ذلك عملك أنت، فأنت التي ستضعين البرامج ومنهجية العمل وتسهرين على تنفيذه، بعد أن يبدأ العمل في المؤسسة. وأضاف: ألست خريجة كلية التربية وعلم النفس؟.

أدركت أنه مصمم على إنجاز الوقف في أقرب وقت وقبل أي تخطيط ..لذلك رأيت أنه من الأفضل أن نغير دفة الحديث، فقد قرر ولا فائدة من النقاش..فلو تماديت معه في النقاش، لأوَّل ذلك بأنه تراجع مني عن الوقف لا قدر الله!

واصلنا السير وأنا مأخوذة ومبتهجة بما سمعت، وأخذت أفكر في المسؤولية التي حملني إياها، مسؤولية إعداد دراسة وافية عن المشروع القرآني ..

ولكن كل شيء في هذه الحياة يجري بقدر الله ومشيئته، فبعد أسابيع قليلة من هذا الحوار، أتى أمر الله، والله الأمر من قبل ومن بعد .

ورغم اللظى الذي كنت أتقلب فيه من جراء فراق صنو حياتي - وقد مرت علي أيام بل شهور عصيبة احتسبتها لله - فإنني لم أنس المشروع، بل ازداد حدة وقوة، ولازمني ليلا ونهارا، وأخذت أعرض الفكرة على الزائرين والزائرات الذين كانوا يفدون علي بالرباط لتقديم العزاء. فكانت معظم الآراء مجمعة على أن المسؤولية جسيمة وأنه من الصعب أن أجد أناسا تتوفر فيهم شروط الأمانة والصدق والاستقامة لأغامر معهم في تنفيذ المشروع.. وأنه من الخير لي أن أنصرف عن الموضوع نهائيا حتى لا أدخل في متاهات لا علم لي بها، وأن الحل المناسب هو أن احتفظ بالدار لنفسي، وأنه في حالة بيعي للدار أن أخصص مبلغا من المال لتوزيعه على الكتاتيب القرآنية أو على المراكز الدينية..

وللحقيقة أقول بأن كل هذه الأجوبة لم تقنعني، ولم يطمئن لها قلبي .. فأنا قطعت عهدًا على نفسي أمام الله وأمام زوجي أن أهب الدار للقرآن الكريم لتكون مركز إشعاع للدراسات الإسلامية، فكيف أخيس العهد والعهد كان مسؤولا؟ وكيف أحرم نفسي من صدقة جارية أرادها الله لي على يد زوجي؟

وعشت أياما وليال أستعرض المشروع من كل جوانبه، وأحيانا كانت تنتابني أفكار تكاد تعصف بي، فالإنسان كثيرا ما يضيع إذا تكاثرت حوله الآراء والنصائح ودائما فيها الغث والسمين.. وقد بلغ بي الأمر في بعض المرات أن شككت في قراري..

وكدت أضيع لولا رحمة الله بي، وهو وحده الذي يعلم سرائر النفوس ..

وفي ليلة من الليالي التي لا تنسى، رأيت فيما يرى النائم، أنني أوجد في طنجة وقد وقفت أتطلع إلى البناية من الخارج، فإذا بالإلغي يتراءى لي على سطح الدار يجري من هنا وهناك وهو ينشر لافتة بيضاء ضخمة مكتوب عليها بحروف بارزة: مركز الدراسات الإسلامية، واستيقظت على هذه الرؤيا الملهمة، وقد زال الكابوس الذي كان يجثم على صدري، ويقض مضجعي، وشعرت بالاطمئنان، وأيقنت بكيفية لا تقبل الشك أن الفكرة يجب أن تنفذ، وأن المشروع يجب أن يظهر للوجود، فالأستاذ الإلغي يذكرني من وراء الغيب بالعهد!

*-الدكتورة آمنة اللوه (1926 - 2015)، أديبة وصحفية من مواليد مدينة الحسيمة، كتبت نص «الملكة خناثة قرينة المولى إسماعيل» وفازت عنه جائزة المغرب للآداب سنة 1954.

-1تقصد زوجها الأديب الشاعر إبراهيم الإلغي رحمه الله

-2 دار كبيرة بطنجة وهبتها الأديبة آمنة اللوة رحمها الله خدمة للدراسات القرآنية.

يحيى اليحياوي

الرقمنة والتنمية في المغرب

القطيعة الكبرى

ضمن منشورات لارمطان بباريس، صدر أخيرا باللغة الفرنسية للدكتور يحيى اليحياوي، كتاب جديد يحمل عنوان: «Numérique et développement au Maroc-la grande fracture» (الرقمنة والتنمية في المغرب-القطيعة الكبرى)، ويقع الكتاب في 326 صفحة من القع الكبير، وهو متوفر بكبريات المنصات الرقمية فقط.

وقد أفرد يحياوي مؤلفه لما أسماه «العلاقة المتوترة» بين الرقمنة والتنمية في المغرب منذ الاستراتيجية الرقمية الأولى سنة 2005 إلى حدود صدور هذا الكتاب.

نقرأ على ظهر الغلاف: «منذ بداية هذا القرن، عمد المغرب إلى اعتماد العديد من الاستراتيجيات الرقمية، بغاية جعل الرقمنة أداة تطور اقتصادي واجتماعي ووسيلة تحول مجتمعي. بيد أنه بعد عقدين من الزمن، وباستثناء بعض الإنجازات الكمية هنا وهناك، فإن الحصيلة كانت ضعيفة وغير ذات قيمة يعتد بها».

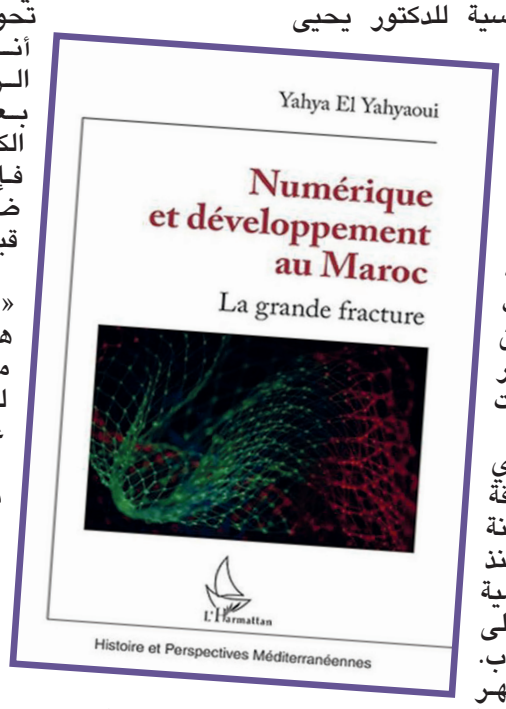

وتابع اليحياوي: «إن الرهان على هذه الاستراتيجيات مجتمعة لم يدرك، ليس فقط بسبب غياب الرؤية المؤطرة لها، ولا نتيجة تقصير مستويات التنسيق على مستوى المركز والجهات، بل أيضا بسبب غياب مستويات تقييم وحكامة جادة، يكون من شأنها الوقوف عند مكامن الخلل في السابق، قبل مباشرة اللاحق».

الإنسان المُستعمَل

عبد الحكيم برنوص

اختار الكاتب المغربي عبد الحكيم برنوص، أن يسمي مؤلفه الجديد باسم «الإنسان المُستعمَل»، وقد صدر أخيرا عن دار «فالية للنّشر» ضمن سلسلة منشورات «ملفات تادلة» ببني ملال.

يكمن «في هذا الكتاب مزاج متنوعٌ منَ الموضوعات الاجتماعيةَ والسّياسية واللغوية والتربوية التي يمورُ بها المجتمع والحياة وتُحيط بالكاتب، فانفعل بها انفعالا، وقيّدَ هذا الانفعال مقالات، أدلى بها بدلوه في حلبة الحياة الواسعة، وبحرِها اللجيّ الكبير».

هذا المؤلف «أشبهُ بالوثائق، أوْ هيَ شواهدُ على أحداث مرّت، ماج بها ثاني عقود هذا القرن وغرّة عقده الثالث»، كما أن «الإنسان المستعمَل نظرٌ في النّفس وفي المجتمع، وتقليبٌ في رُكام الحياة».

لنقل إن «الإنسان المُستعمَل» كتاب يتأمّلُ الواقع وينقدُه، ويحاول أنْ يُشير بالأصبع إلى كثير من ظاهرات السّلب والنقيصة التي تصِم المجتمع وتجذِبُه للوراء، وحسبُه ذلك».

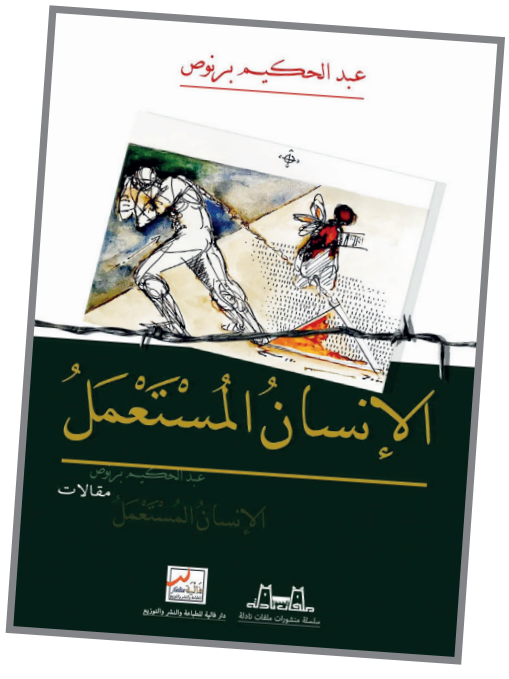

مجلّة «حروف الضَّاد» في عددها السادس

رأى النور أخيرا العدد السّادس من مجلّة «حروف الضَّاد- أدبيّة ثقافيّة فصليّة»– شتاء 2023م، والتي تصدر عن «مؤسّسة أنصار الضّاد» في أمّ الفحم- فلسطين المحتلّة، والتي يشرف عليها د. محمّد عدنان بركات، ويرأس تحريرها د. محمّد حلمي الرّيشة.

احتوى العدد الجديد على:

غائبون/ حاضرون

د. كمال عبد الرّحمن (العراق): هندسة النّصّ وبنى التّشكيل في شِعر محمّد عفيفي مطر (1935-2010)

شادية حامد (فلسطين): أحاديّ اللّون.. رباعيّ الأبعاد.. الشّاعر محمّد الفيتوريّ (1936-2015)

علاء حمد (العراق): العتبات والبنى النّصّيّة في نصوص الشّاعر العراقي حميد العقابيّ (1956-2017)

دراسات/ قراءات

- د. فاطمة بولحوش (المغرب): تشكيل الإيقاع الصّوتيّ في الشّعر العربيّ الحديث

- د. نجمة خليل حبيب (فلسطين): التجريب الروائي.. جرأة المسكوت عنه في الرواية الفلسطينية- رواية «مخمل» لحزامة حبايب، أنموذجًا

- شوقي بدر يوسف (مصر): البحث عن الهويّة في الرّواية اللّبنانيّة- رواية «قيد الدّرس» للرّوائيّة لنا عبد الرّحمن، أنموذجًا

- د. عزّ الدّين ميرغني (السّودان): السّهل الممتنع في شعر باسم فرات- عندما تكسر قصيدة النّثر صفة الإبهام والغموض

- د. سناء عزّ الدّين العطاريّ (فلسطين): أدب الأطفال والتّربية الإبداعيّة

- عبد الرّحيم الشيخ يوسف (فلسطين): الفسيفساء الأسلوبيّة في «كنت أنت وكنت أنا» للشاعر ناظم حسّون

- هالة محمود (مصر): شعريّة السّرد وسرديّة الشعر في «غواية أخرى» للشّاعرة والكاتبة عائشة المؤدّب وجهًا لوجه

د. حاتم الجوهري: الثقافة العربية في مأزق على المستويين العلمي والأكاديمي. حاورته: زينب عيسى (مصر)

الضّفّة الأخرى

راجيف خانديلوال: إحدى عشرة قصيدة عن الشّعر والشّاعر. ترجمة: د. محمّد حلمي الرّيشة

ملفّ/ راهن الشعر في فلسطين 1948 – ج1

الشّاعرات والشّعراء: منتصر منصور. سلمى جبران. ريتا عودة. نظير شمالي. زياد شاهين. سناء عبيد. سلطان مي.

ملفّ/ عن الشعر المغربيّ

- د. رشيد طلبي (المغرب): قصيدة النّثر المغربيّة- البنيات الأسلوبيّة وتداخل الخطابات

- د. محمّد آيت الطالب (المغرب): ترجمة الشّعر المغربيّ الحديث- الأنطولوجيات الشّعريّة المغربيّة

- لحسن غلام (المغرب): أبعاد الخطاب في القصيدة المغربية الحديثة- علّال الفاسي، أنموذجًا

- عبد الحكيم جابري (المغرب): الشّعر المغربي في القرن 12 ميلادي قال الرّاوي

حاتم عبد الهادي السّيّد (مصر): الفصل الأوّل من الرّواية الجديدة «خريف المتوسّط»

سناء شفيرت (فلسطين): أربع قصص قصيرة

علي عبدوس (المغرب): رسالة إلى صديق ...

مداد الأجداد

- د. سمير الخليل (العراق): قراءة حداثيّة في نصّ شعريّ قديم- تحليل إجرائيّ لقصيدة أبي العلاء «عللاني»

- د. كريم الطيبيّ (المغرب): التّنمّر في شعر عنترة بن شدّاد

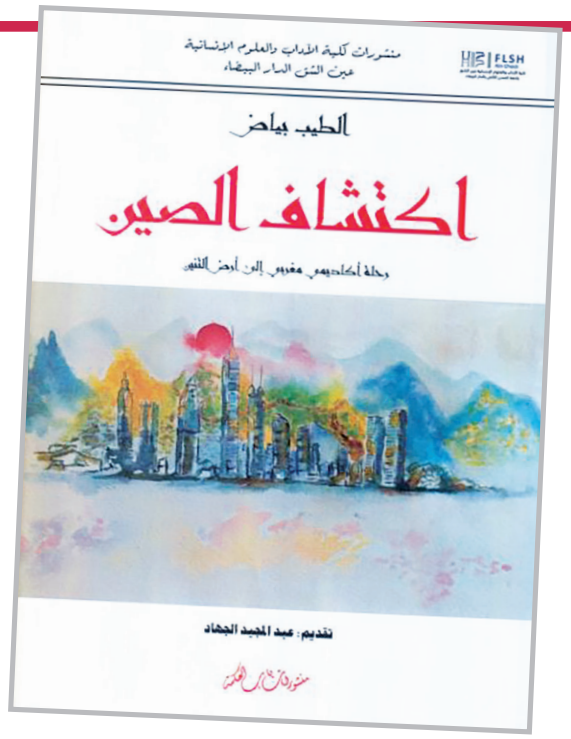

رحلة أكاديميّ مغربي إلى أرض التنين (طبعة ثانية)

الطيب بياض

ضمن منشورات باب الحكمة بتطوان، صدرت أخيرا طبعة ثانية لكتاب «رحلة أكاديميّ مغربي إلى أرض التنين»، وهو من تأليف المؤرخ المغربي الطيب بياض.

يسرد الأكاديمي بياض في هذا المؤلف ملاحظاته وتأملاته في التجربة التنموية الصينية، بعد زيارة لعدد من مدنها وقراها ولقاءات بمسؤوليها وساكنتها.

ويربط بياض النجاح الصيني بـ»استلهام الصينيين تراثهم الفكري والفلسفي والروحي، إلى جانب الإرادة في تحقيق التميز بإصرار وتوفير شروط تحققه، ناهيك عن الواقعية والتواضع من موقع القوة».

ويترافع المؤرخ عبر مؤلَّفه عن المغرب مقدما إياه كجسر للصين نحو إفريقيا في إطار مبادرة «الحزام والطريق»، نظرا لما يتمتع به جغرافيا وفي بنيته التحتية، وترسانته القانونية والمؤسساتية، وبنيته التحتية البنكية والمالية، وبنيته التحتية في مجال الاتصالات، واستقراره السياسي.

وينقل الطيب بياض ملاحظاته حول التجربة الصينية منذ الحكمة الكونفوشيوسية، ووصولا إلى الانفتاح على القارة الإفريقية بعد القوة الاقتصادية وما نتج عن ذلك من خلق الدولة موقعا لها في عالم معولم، مرورا بزمن الاستعمار والتحرير الماوي، الذي تلاه عصر الإصلاح والانفتاح.

السيميائيات من المُحايثة إلى الثقافة

قراءة في مشروع الدكتور سعيد بنكراد السيميائي (1989-2020)

الحسين أوعسر

كتاب جديد للباحث الحسين أوعسري، صدر أخيرا عن دار الحوار للنشر والتوزيع بسوريا بعنوان «السيميائيات من المحايثة إلى الثقافة.. قراءة في مشروع الدكتور سعيد بنكراد السيميائي (1989-2020)».

يضم الكتاب ثلاثة فصول، أولها يقتصر على «المؤلفات النظرية سردا وتأويلا»، وثانيها يهتم بـ»المؤلفات التطبيقية» التي عدها الباحث «ذات أهمية قصوى كونها تزاوج بين التنظير والتطبيق، وتكشف قدرة النظريات التي تشكل عدة الباحث على تفكيك النصوص والخطابات اللفظية والبصرية»، أما ثالث الفصول فتوقف فيه أوعسري عند «الترجمة التي لا تقل أهمية عن المؤلفات التنظيرية والإجرائية، لما لها من دور بارز في تحقيق الإبدالات المعرفية (...) ولما لها (...) من دور محوري في تأهيل العربية وتطويرها».

يسائل هذا الكتاب «مشروع باحث أكاديمي رصين، نذر حياته للبحث في السيميائيات، حاورها أكثر من ثلاثة عقود، ألف وترجم ما يناهز أربعين كتابا كلها في موضوع السيميائيات بمدارسها وأعلامها واتجاهاتها المتداخلة»، إذ «ارتبط اسم بنكراد في النقد العربي المعاصر بالسيميائيات نظير ما قدمه ولا يزال يقدمه من أعمال لتطوير هذا الصرح المعرفي وترسيخ مفاهيمه وأدواته في المنجز النقدي العربي تأليفا وترجمة».

وذكر الحسين أوعسري أنه لم يقتصر على ما كتبه بنكراد؛ بل حاول استقصاء بعض ما كتب عن أعماله من دراسات وأبحاث، ووجد أن معظمها «غالبا ما تقتصر على جانب من جوانب مشروعه أو خطاب من الخطابات التي اشتغل بها».

وسجل الباحث أن مشروع بنكراد يظهر «تطورات متلاحقة يمكن وصفها أحيانا بالجذرية في نسغ الكتابة عنده»، وهو ما جعله يصف مساره البحثي بـ»المطبوع بالتطور والانفتاح والامتداد» الذي «تعسر قراءته ومواكبة ما استجد منه دون العودة إلى ما سبقه».

وواصل مؤلف الكتاب: «لم تقتصر الصعوبات التي واجهتنا في تأليف هذا الكتاب على غزارة ما كتبه الباحث وما كتب عنه فحسب؛ لكنها ترجع كذلك إلى تنوع المواضيع التي يكتب فيها وتعددها، وتنوع الروافد والمدارس التي ينفتح عليها ويغرف منها.. فهو لم يقوقع ذاته في مدرسة سيميائية واحدة، ولم يتأثر باتجاه سيميائي واحد، إنه على النقيض من ذلك راح ينهل من ينابيع المعرفة كل ما من شأنه أن يسعفه في دراسة الفكر العربي وتنويره من زاوية السيميائيات التي تعد الخلفية الوحيدة التي تجمع الكم الهائل من المعارف والأفكار التي ينبني عليها مشروع سعيد بنكراد».

وخلص الباحث إلى أن منجز بنكراد «مشروع سيميائي متكامل، انطلق من الأدب في شقه المتعلق بالسرد وانتهى إلى دراسة العلامات في أنساق بصرية شديدة التركيب والتعقيد؛ الأمر الذي وسم مشروعه بانفتاح وامتداد يتعذر أحيانا حصرهما والإحاطة بهما إحاطة شاملة، لكن تبقى السيميائيات باتجاهاتها المختلفة خيطا ناظما لهذه التفريعات».

وأضاف الحسين أوعسري: «لم يتخصص بنكراد في حقل سيميائي ضيق كما نجد عند البعض ممن اختاروا أن يتخصصوا في سيميائيات السرد أو الأهواء أو الثقافة أو الوسائط أو الصورة أو ما سوى ذلك» بل «دمج كل هذه التخصصات في مشروعه، وكان اطلاعه عليها والإفادة منها يوازي الانتقالات التي عرفها مشروعه من البداية إلى الآن"، مسجلا أن اللغة عند سعيد بنكراد تعد «أداة التمثيل الأولى، فهي المدخل الذي يقود إلى ترميز الظواهر نصية كانت أو بصرية، وهي المنفذ ذاته لفك شفرات هذه الرموز والإمساك بدلالاتها».

كما ذكر الباحث في قراءته لمنجز بنكراد أنه»يعلي من شأن القارئ ويُبَوّئه مكانة خاصة في ما يكتب، يحترم ذكاءه وقدراته المعرفية، لا يفرض عليه رؤية ولا يقدم له زاوية واحدة، ولا يوجهه إلى مقاصد معينة خاصة في الترجمة" و"كثيرا ما يجعل استنتاجاته مقترنة بالاعتقاد حتى يترك مساحة للقارئ ليمارس حقه في التأويل وفي الاختلاف. لذلك، يبتعد كليا عن الأحكام المعيارية القطعية وعن النزعات الوثوقية، ويبتعد كذلك عن بعض النعوت التي تنطوي على توجه فكري أو

كيليطو كما أعرفه (*)

د. عبد العالي بوطيب

الحديث طبعا عن بعض الشخصيات العامة، على اختلاف وتنوع مجالات اهتماماتها، غالبا ما يترك لدى المتحدث انطباعا إيجابيا خاصا، لا يخلو عادة من مزالق ومخاطر. خصوصا حين يتعلق الأمر بباحث من طينة خاصة، أغنى الخزانة العربية والأجنبية بدراسات متميزة، أثرت بشكل كبير في تغيير تصورات الباحثين بخصوص العديد من القضايا ذات الصلة بالثقافة عامة، والثقافة العربية الكلاسيكية، على وجه التحديد. كل ذلك طبعا بموازاة تأطيره الجاد والموفق لمجموعة من البحوث والأطاريح الجامعية الهامة ومناقشتها، داخل المغرب وخارجه. وما حصوله اليوم على جائزة الملك فيصل العالمية للغة العربية والآداب دورة 2023، وقبلها على جوائز هامة أخرى عديدة، سوى دليل قاطع على صحة ما نقول.

كل هذا وغيره يجعل مهمة الحديث عن مجمل جهود هذا الباحث، واجتهاداته العلمية المتميزة في مختلف مجالات التدريس والتأطير والتأليف، مهمة صعبة، إن لم نقل مستحيلة، تتطلب جهدا ووقتا أكبر وأطول بكثير، مما اعتدنا عليه سابقا مع شخصيات أخرى محدودة المساهمة والعطاء .

لذلك كله، استقر رأينا في الأخير، تفاديا لكل العوائق والمطبات المحتملة، وما قد يتولد عنها من انعكاسات سلبية محتملة على صورة الرجل و جهوده، حصر موضوع هذه الورقة التعريفية، كما يصرح بذلك عنوانها، في موضوع : (كيليطو كما أعرفه).

سأحاول من خلالها تقديم صورة خاصة لشخصية الأستاذ كيليطو كما أعرفه طبعا، صورة قد تكون بحكم طبيعتها الذاتية بعيدة نسبيا عما قد يعرفه الآخرون عنه، لا لشيء إلا لأن ما سأقوله عنه لا علاقة له إطلاقا بما هو مرئي ومباشر، وبالتالي بملامحه الفيزيقية الملموسة عن طريق الحواس، وإلا لكان الموضوع غير ذي أهمية، ما دام لا يضيف شيئا جديدا عما هو معروف ومألوف.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن ما سأقوله عن صاحبنا لا علاقة له إطلاقا بأسرار خاصة، عادة ما ينفرد بمعرفتها الأصدقاء الأقربون، أكثر من غيرهم . لسبب بسيط يتمثل في كوني لست من هذه الزمرة، ولم يسبق لي أن التقيت مباشرة بالأستاذ كيليطو سوى مرات قليلة جدا، لم نتبادل فيها، على ما أذكر، سوى كلمات محدودة، لا تسمن ولا تغني من جهل .

قد يتساءل القارئ، باستغراب، إذا لم يكن الأمر لا هذا ولا ذاك، فعن أي صورة نجهلها ستحدثنا ؟.

الجواب طبعا بسيط جدا، وقد يكون غريبا أيضا: إنني سأحدثكم عن الصورة الورقية للأستاذ كيليطو، عن الصورة المرسومة، بشكل عفوي، ضمنيا، بين سطور مختلف مؤلفاته، والتي تشكل في مجموعها ملامح صورة كيليطو الكاتب، لا الإنسان كما تصورتم أول مرة. وإن كان التقاطع بينهما يبقى، على كل حال، واردا، و لو بدرجات وأشكال مختلفة.

فالمعروف الآن، في الدراسات النقدية الحديثة، أن بعض ملامح شخصية الكاتب، تحضر دائما، بشكل من الأشكال، وربما بنسب مختلفة، بحسب طبيعة المكتوب وخصوصيته، في كل نص. و لو لم يكن ذلك ضمن مقاصده الواعية المباشرة، تماما كما تعرف شخصية القارئ الفكرية من مقروءاته . ولعل هذا ما يفسر، في تقديري المتواضع، الطريقة الغريبة، والآلية أحيانا كثيرة، التي يتحول معها اسم الكاتب لعامل جذب أو صد، حسب نوعية الصورة المختزنة عنه من قبل القارئ (القراء)، في عملية اقتناء وقراءة هذا الكتاب أو ذاك. وكذا فيما نلاحظه أحيانا لدى بعض القراء المبتدئين من تداخل وخلط فاضحين، أحيانا أخرى، بين ما هو شخصي وما هو فكري، في دراستهم لبعض الأعمال الأدبية، واعتبار ما تحتويه هذه الأعمال صورة حقيقية مباشرة من حيوات كتابها، في جهل أو تجاهل تام للفروق العميقة الفاصلة بينهما، رغم ما توحي به ظاهريا من تداخل مضلل ولا تقبل التجاوز .

لهذا كله، وتأسيسا عليه، لن أحدثكم عن كيليطو الإنسان، ولا عن أسراره ومسائله الخاصة، فهذا شأن لا يعنيني أبدا، لا من قريب ولا من بعيد، كما أنني لا أدعي معرفة استثنائية به. بقدر ما سأحصر ورقتي هاته، في استعراض ملامح الصورة الفكرية، المجردة غالبا، المكونة لدي عن هذا الكاتب من خلال قراءاتي العديدة والمتكررة لأغلب أعماله، كي لا أقول كلها، منذ عمله الأول: (الأدب و الغرابة، سنة 1981) إلى اليوم .

وطبعا بما أن هذه الصورة المتحدث عنها تحضر في المكتوب: (النصوص)، وغالبا بشكل ضمني غير مباشر، فإن استخلاصها غالبا ما يتطلب مجهودا استثنائيا، تختلف نتائجه باختلاف مؤهلات القراء، و تباين خبراتهم، ونوعيات قراءاتهم إلخ. مما يؤثر، حتما في حجم المعلومات الشخصية المحصل عليها، وكذا درجة وضوح الصورة المستخلصة وقيمتها. بحيث يمكن الزعم، دون مجازفة، بأن لكل قارىء صورة خاصة عن هذا الكاتب أو ذاك، قد تختلف بعض تفاصيلها، قليلا أو كثيرا، من قارئ لآخر، وهو ما يظهر جليا، في بعض الجلسات، من خلال تباين آراء ومواقف بعض القراء / المتحاورين بخصوص ملامح صورة كاتب بعينه، لهذا فلا غرابة إذا ما طغت الصيغة الشخصية على عنوان ورقتي هاته: (كيليطو كما أعرفه)، وهو ما يعني بعبارة ضمنية أخرى: (كيليطو كما قد لا يعرفه الآخرون)، مما يعطي المشروعية لهذا العرض، ويجعله، في تقديري، محل

جذب، أعتبره طبيعيا جدا، على الأقل بالنسبة للذين لا يعرفون الأستاذ كيليطو بالمرة، أو لأولئك الذين يعتقدون أن لهم صورة معينة عنه، قد تكون مغايرة بعض الشيء عن الصورة المزمع تقديمها في السطور اللاّحقة.

فماذا عن ملامح صورة (كيليطو كما أعرفه)، من خلال كتاباته العديدة التي قدر لي أن أقرأها ؟

قبل ذلك، لابد من التذكير بملاحظة منهجية أساسية، مفادها أن هذه الصورة تحضر ملامحها العامة في مخيلتي، ككل الصور، بشكل شامل ومتكامل، غير أن وصفها يحتاج بالضرورة منهجيا لعملية تفكيك، تماما كما يحصل عادة في كل العمليات الوصفية عامة، والتفصيلية منها على وجه التحديد. لذلك كله سأحاول في مرحلة أولى تقديم ملامح هذه الصورة مجزأة لمظاهر متفرقة، على أن أقوم في مرحلة لاحقة بإعادة تركيبها في صورة شاملة متكاملة، تتداخل فيها الجزئيات في الكليات.

فماذا إذن عن هذه الملامح الجزئية لصورة الأستاذ كيليطو كما أعرفه ؟

من هذه الملامح العامة:

أولا : المعرفة الجيدة باللغتين أو اللسانين، على حد تعبيره: (العربية والفرنسية وربما أكثر).

ثانيا :المعرفة الجيدة بالثقافتين: (عربية و غربية),

ثالثا : الاهتمام الكبير بالثقافة العربية.

رابعا :الاستفادة من الثقافة الغربية وتسخير مفاهيمها ومناهجها لخدمة الثقافة العربية الكلاسيكية، وإعادة اكتشافها من منظور حديث، غريب و مدهش، مخالف تماما لما هو معروف و مألوف.

خامسا: أن أعماله بجمعها بين الثقافة العربية الكلاسيكية (الموضوع المدروس)، والمفاهيم والمناهج الغربية الحديثة (آليات الدراسة)، تكسر الصورة المألوفة عن الفرق بين الأدب القديم والأدب الحديث، ومدى صلاحية معايير التصنيف والتمييز المعتمدة سابقا بينهما .

سادسا : أن اللغة الفرنسية في كتاباته توظف لتعريف الآخر (الغرب) بخصوصية الثقافة العربية الكلاسيكية ومزاياها، ولعل هذا ما يعطي كتاباته قيمة خاصة لدى الغربيين ، لأنها تتناول جوانب جديدة بالنسبة لهم . وبذلك تستفيد الثقافة العربية من كتاباته، وتبعد عنها بالتالي صفة الاستلاب الثقافي التي يسقط فيها معظم المتفرنسين، بالمفهوم السلبي للكلمة.

سابعا : أنه يوفق إلى حد كبير في استثمار وتشغيل المفاهيم الغربية في دراسة القضايا العربية الكلاسيكية، لدرجة لا يشعر معها القارئ بهذا الضجيج المنهجي المزعج الملحوظ في العديد من دراساتنا النقدية ذات المواصفات المماثلة. ولعل أكبر دليل على ذلك قيمة النتائج المتوصل إليها. إذا ما قورن بالحضور الخافت للمفاهيم المستعملة في ذلك.

ثامنا : أنه بعمله هذا يبرهن، بما لا يدع مجالا للشك، على الممارسة النقدية الحقيقية والفعالة، لا تنحصر في مجرد امتلاك الناقد لموضوع ومنهج فقط ، وإنما تتطلب فضلا عن ذلك، أولا و أخيرا، دراية و دربة عاليتين في كيفية تصريف الناقد للمنهج المعتمد، وتكييفه وفق خصوصية الموضوع المدروس، بما يضمن التلاؤم والانسجام الضروريين، بين الوسيلة والغاية، بين المنهج والموضوع، وهذا ما يفسر، في تقديري، سبب فشل دراسات و نجاح أخرى في معالجة نفس الموضوع بنفس المنهج .

تاسعا : أن أعماله يهيمن عليها، كما هو معروف وملحوظ، الجانب السردي، تنظيرا ودراسة (المقامات/ كليلة و دمنة/ الجاحظ/ ألف ليلة و ليلة/ المعري ..إلخ)، لكن اللافت في هذه الأعمال كلها، بالإضافة طبعا للسمة السابقة، هو أن المعلومات السردية لا تحضر دائما كمفاهيم إجرائية فقط، وإنما تتجاوز ذلك، في كثير من

المرات، لتوظف كتقنيات تعبيرية توفر إطارا حكائيا رائقا وجذابا لإعداد القارئ لتلقي هذه المفاهيم و المعارف بشكل سلس رائق، كما حصل في أغلب أعمال الأستاذ كيليطو، يكفي أن نذكر منها بالمناسبة، على سبيل المثال لا الحصر، مقدمة كتابه (الكتابة و التناسخ)، و التي استفاد فيها، كما في غيرها، من معرفته الدقيقة بخبايا الممارسة السردية وتقنياتها، مما أضفى على مقروئية الكتاب متعة عالية تنضاف لفائدته المعرفية المؤكدة، الأكثر من هذا أن استفادة كيليطو من معرفته السردية لا تنحصر في هذه الجوانب فقط، بل تتعداها لتصبح آلية من آليات دراسة النصوص و تحليلها، كما حصل على سبيل المثال في الفصل الثامن من الكتاب السالف الذكر، المعنون بـ : (رسالة من وراء القبر)، وما طبع تحليله لها من تشويق حكائي قوي، أضفى على مقروئيتها متعة وجاذبية عاليتين، ما كان لهما أن يتوفرا دون ذلك. وبذلك أكسب عمله متعة وفائدة لا مثيل لهما، وبرهن في الوقت ذاته عن تمكنه وعشقه الكبير للسرد، تنظيرا و إبداعا .

عاشرا: أنه رغم التوفيق الاستثنائي الذي حالف أعماله كلها، على اختلاف أنواعها، من بدايتها إلى اليوم، ظل كيليطو دائما يعتبر نفسه مجرد هاو يمارس لعبة تفكيك الخطابات وتقليب محتوياتها، ولم يجرؤ أبدا يوما على قبول صفة ناقد أو كاتب بالمعنى الحقيقي للكلمة، لا لشيء سوى لأنه يدرك تمام الإدراك المآزق العميقة التي تضمرها هذه الصفة. وما تشترطه في حاملها.

وأخيرا: الملمح الأخير المكون لصورة كيليطو كما أعرفه يتمثل أساسا في كونه قليل الكلام، لدرجة تشعرك أحيانا بنوع من الاستغراب، من رجل يمتلك ناصية اللغات، ولا يتكلم كثيرا كما هو حال العديد من الكتاب الآخرين، وهذا ما لمسته وعاينته من خلال بعض المناسبات الثقافية والجامعية التي جمعتنا على امتداد سنوات ذوات العدد بكل من كليتي الرباط ومكناس. والحقيقة أن هذه الخاصية لا تقتصر على المنطوق فقط، بقدر ما تمتد لتشمل المكتوب أيضا، كما قد يلاحظ المتتبعون لأعمال هذا الباحث. والتي يغلب عليها طابع التركيز والتدقيق بعيدا عن الإطناب والترهل اللغويين. مما يؤكد بالملموس حرص الرجل الصارم على ملاءمة الشكل للمضمون دون زيادة أو نقصان.

من خلال هذه الملامح، وغيرها مما لا يتسع المقام لذكره، تتضح بعض ملامح صورة كيليطو الفكرية، كما عرفتها من خلال كتبه ودراساته، وهي صورة غنية الإيحاءات، دون شك، يلتقي فيها التعدد اللغوي، بالتلاقح الثقافي والمعرفي، فضلا عن الاعتزاز الكبير بالثقافة القومية مقرونة بالانفتاح على الثقافات الأخرى، والاستفادة منها في دراسة الثقافة الخاصة، وإعادة اكتشاف خباياها الإيجابية المطمورة .

وبذلك يصدق عليه، ما قيل في بعض النوابغ قبله، إنه : (باحث اجتمع فيه ما تفرق في غيره)، إنه بعبارة أخرى أوجز وأبسط (مثقف شامل). لذلك فلا غرابة إذا ما وجدناه يحضر بقوة في معظم الندوات المنظمة من قبل مختلف الشعب الأدبية الجامعية على اختلاف لغاتها، لا فرق عنده بين شعبة عربية وأخرى غربية، ما دام يمتلك أكثر من لسان، ويلم بأكثر من مجال.

هامش:

*/ ورقة بمناسبة حصول الأستاذ كيليطو على جائزة الملك فيصل العالمية لسنة 2023.

شارلو

المصطفى كليتي

متلفعا داخل بطانيته، في غرفة مهملات ومتلاشيات فوق سطح عمارة قديمة فوضى عارمة، كارطين من ورق مقوى، ملابس مهترئة، زجاجات فارغة مرمية هنا وهناك، بالكاد يقف مستندا إلى عكازه، ينفض الغبار على ملصقات وصورة شارلو مع طفل صغير، كان يعمد إلى تكسير زجاج النوافذ حيث يهب شارلو لإصلاحها بمقابل، يدير مجسما لكرة أرضية، قبعات، سراويل، عكاكيز، أكسسوارات مختلفة، تعب من الوقوف، جلس لم تعد له قدرة على الشرب أو التدخين صدره يؤلمه، حشرجات كعصافير ترجع أنينا يتعشش في جوفه، الأولاد طيور مهاجرة كل مضى لقصد، زوجته التي احتملت حماقاته فاضت روحها ذات يوم ماطر حزين .

أحد أصدقاء طفولته، منحه غرفة مجانا فوق السطح، كثيرا ما يرفع عينيه لسقف البيت مقلبا النظر يرى ويرى ولا يرى شيئا، آلام الركبة المبرحة ودقات القلب المتسرعة، يكاد أن يقذف رئتيه السعال الشديد الذي يتملكه ويعصر صدره.

في السابق وجد فرجا ماديا، وقد وضع فيه صاحب بار «النجوم» ثقته، فكان يساعد الحسناء «دنيا زاد» في سقاية الزبناء، مع تقديم خدمات للباحثين عن مزيد خمر بعد منتصف الليل، كانوا يجدون فيه ملجأ، فيهبون لطلب خدماته، كما كانت بنات الليل الحديثات في المهنة، يطلبن منه التوسط لهن لصاحب الحان حتى يسمح لهن بمؤانسة الزبناء، الذين يصرفون بسخاء وقد نالت منـهـم تعتعة السكر وهمزات ضربات حمار الليل .

تعود على السهر وبيع وشرب الخمر، لكن الإفراط في التدخين فرى رئتيه حتى صار يبصق دما، فأضحى سعاله مزعجا، وذات ليلة دس المسؤول عن المحل أوراقا مالية في يده، وقال له بجدية:

- عليك أن ترتاح يا بو شعيب، وتذهب عند الطبيب !

لم يرتح ولم يذهب إلى طبيب، حاول العودة إلى ممارسة عمله، فخانته صحته، والوحدة القاسية تمتصه وتجفف ورقة عمره النضرة، فتحولها شاحبة صفراء عكست التغضن والتجاعيد في وجهه.

صندوق كارطوني يلازمه، قبل أن يخرج من المنزل، أو بالأحرى قبل أن يطرد، بعدما تراكمت عليه واجبات الكراء والماء والكهرباء، فلم يقو على دفع ما بذمته، موسى حارس العمارة، الذي جمعته به صداقة متينة، أسعفه، فأشفق على حاله وأسكنه مأوى بسطح العمارة، فكان في المساءات الباردة، لما تهيج عليه الذكريات وتُعْرض أمامه وجوه أليفة، كشريط سينمائي، يسترجع لحظات أثيرة من نوستالجيا ماضي جميل، يتذكر زهرة ببسمتها العذبة، تنحفر في خدها الأسيل غمازتان تذوبان قلبه شغفا وحبا، أكثر من أربعة عقود أو يزيد شاركته حلاوة ومر الحياة، أطفلت له شادية وعبد الحليم وفريد، كان يسمي أولاده تسمية فنانين عشقهم، وردد أغانيهم فرحا وبكاء، كم كان يقيم ويعتكف لساعات أمام سينمات المدينة التي قوضت ونهضت محلها عمارات إسمنتية وأسواق «المول» الباذخة، كم كان يحب تلك اللحظات الجذابة، قبل أن تخيم الظلمة على قاعة العرض، والموسيقى تصدح بأنغام علقت في قلبه ووجدانه ولا ينساها أبدا «بحلم بيك، أنا بحلم بيك، وبأشواقي مستنيك، بحلم بيك أنا بحلم بيك..» وتنهمر الدموع الحارقة من عينيه متذكرا زهرة، زهرة الندية كنسيم الفجر، الناعمة كنشيش مياه موج بحر في الأيام الصائفة، كلما عادا في المساء من سينما بلاص أو فانطازيو أو الرياض أو الأطلس أوطانكرا، قاعات سينما كانت مهوى عمله ومتعته وسلوته في آن، فكان يقف في الاستراحة الفاصلة بين الشريطين في قاعة العرض ويتجول بحذائه العجيب والغريب، وقد تبت شاربا وكحل عينيه، وطاف بين الصفوف، متلاعبا بعكازه، متعمدا السقوط والنهوض مما يثير عاصفة ضحك، يمعن في تقليد شارلي تشبلن حتى تغير اسمه من بوشعيب إلى اسم شارلو الذي أضحى اسمه المتداول بين الناس.

وكم كان يتذكر ابنه «فريد» الذي كان يصاحبه بعض الأحيان وهو يقدم صبحيات للأطفال، حيث لا يجلس الأطفال على مقاعدهم ويشعلون المكان ضحكا وصخبا، وكثيرا ما كان يقلد مشاهد بالذات، ولاسيما مشهد مصلح زجاج النوافذ، الذي لم يكن يجد شغلا، فيعمد إلى تسخير الطفل لتحطيم زجاج النوافذ، فيجبر السكان على المناداة على مصلح الزجاج، وبذلك يحصل على مقابل حتى تم أمر اكتشاف التواطؤ بينه وبين الطفل المشرد الذي يثير هذه الفوضى والشغب.

وفي إحدى ساحة «الخبازات» يقيم حلقة، يجتمع حولها الناس من مختلف الأعمار ذكورا وإناثا وهم يتتبعون بفضول ولهفة ما يقدمه من وصلات مضحكة، ثم يأخذ طربوشه ويقلبه ويجول بين المتفرجين وهم يرمون بقطع النكل داخله.

وفي المساءات الناعمة، يحضن كمانه العتيق ويعزف معزوفات لرواد الحان أو يزاوج بين حركاته وعزفه وغنائه أحيانا.

يشتري ما يحتاجه من لوازم، ويعود لبيته وأولاده مسرورا.

تسلل الداء اللعين لقصبته الهوائية، فاجتاحه نوبات سعال حاد، كلما هم بإشعال سيجارة ومع ذلك كان لا يدع التدخين، ولا يني عن إشعال سيجارة بعقب أخرى.

كسر خلوته حارس العمارة، وقد أتى ومعه قرص «بيتزا» وأصابع بطاطس مقلية، فورا أقبل على التهام الطعام وقد أخذ منه الجوع مأخذا كبيرا، تبادل مع الحارس أطراف الأحاديث، وقبل أن يمضي أخبره، بأن إحدى الساكنات، ارتابت في أمرك، ولاسيما بعدما اختفت بعض الملابس من حبل الغسيل، وشكت الأمر لكافة سكان العمارة، وخامرتهم شكوك حولك، فحملوني ثقل المسؤولية، فلا بد أن تغير المكان يا صاحبي، خرج ولم يتحمل أن ينظر إلى أثر الكلام على محياه.

سها مصدوما، كان يفكر في تدبير شتيت حاله، وكان لا بد أن يجمع متعلقاته، سترته وشاربه وعصاه وحذاءه المعقوف وأشياء أخرى، كم يعز عليه أن يرمي خصوصياته التي أمست جزءاً لا يتجزأ منه، رحلت زهرة ذات ليلة صقيعية ويدها الباردة بين يديه، حليم ذهب ذات هجرة ولم يعد، شادية وضعت يدها في يد صديقها واختفيا عن الأنظار، فريد شج رأس صاحبته بزجاجة خمر فسجن..

حاول أن يتخلص مما كان يراه زائدا ليخف الحمل ويغادر المكان.

صورة تجسد شارلي تشارلن، يجلسان على عتبة بيت، يترقبان وبمسحة يشوبها حزن ثقيل إلى مجهول ما ينتظرانه.

مد يده لعلبة السجائر، لم تبق إلا سيجارة واحدة يتيمة، مسدها طويلا بين أنامله، متذكرا صورة أبيه المهاجر من عمق الصحراء، وهو البناء الذي تبدأ دورة عمله من طلوع الشمس إلى غروبها، وكان دائما يلمزه بعبارة، تنزل كمطرقة على رأسه:

- تعلم صنعة بوك ليغلبوك !

ويعن في باله، كم أضحك وأسعد، وهو يعيش واقعه المر ويغالب دمعة عصية.

هم بالوقوف، لكن لم يجد ركبتين تقويان على حمله، فانهار ساقطا، جرذان عابثة، تخرج تباعا من حذائه، فتجهز على بقايا البيتزا والبطاطا المقلية.

فتح حارس العمارة الباب، رائحة نتنة تعم المكان.

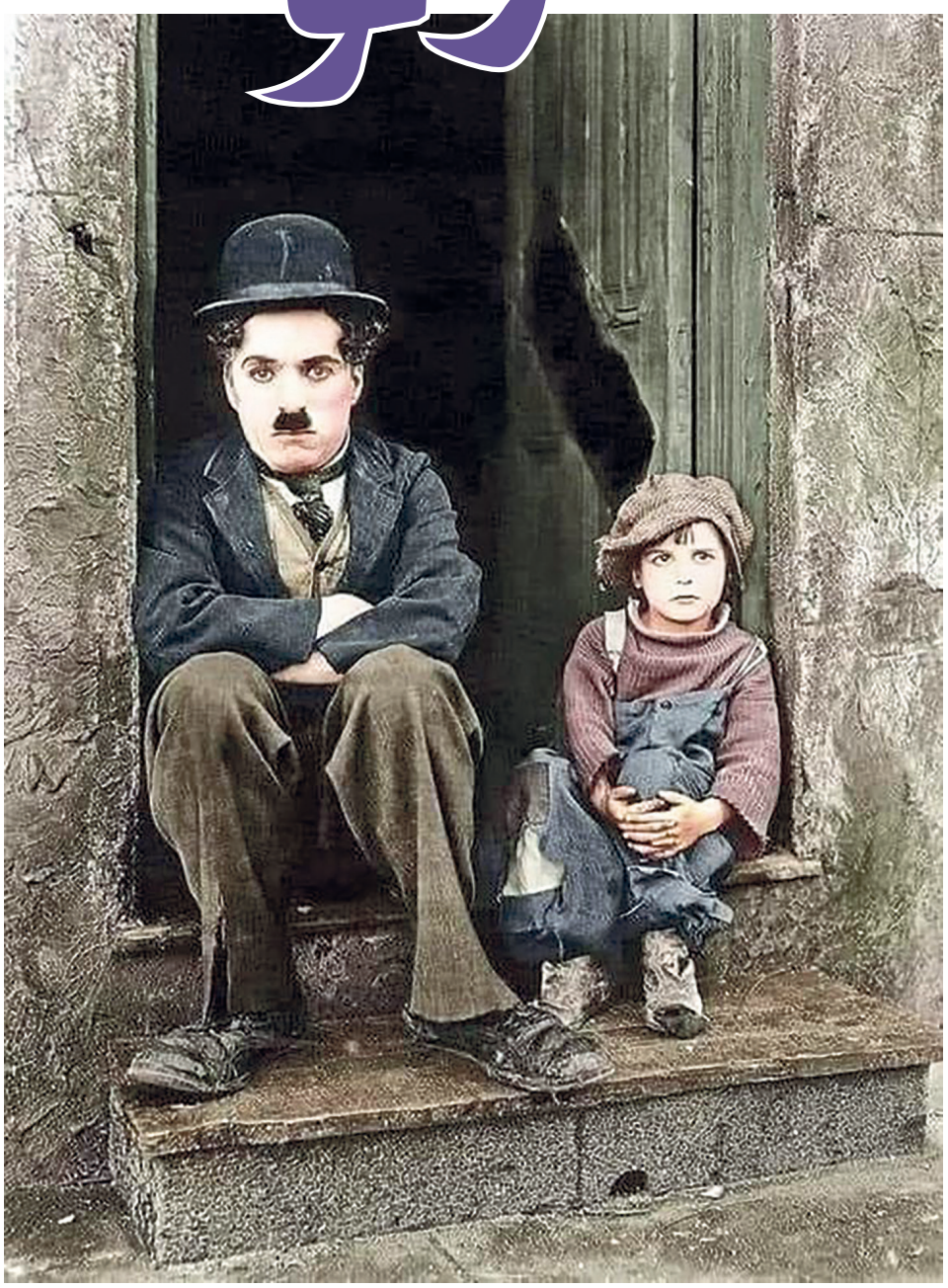

أَعَاصِيرُ تُطَوِّقُ أَبراجِي

أحمد بنميمون

أتهاوى شبَحا يركضُ ،في كلِّ زمانٍ وعلى كلِّ طريق ،
وصدى النيران ملء الروْعِ والأسماعِ يُصْمي ،
فيغطي الدمُّ والأشلاء ما أبصر خلفي
وأمامي من هوْل حريق.

..

عشتُ فيما أجهض الحلم من الإعصار ،
كالومضة من عمر بريقٍ
ضاع في عمق خواء ،
حلّ كالصدمة تمتصُّ نشيجًا
سدّ آلافًا من الأفواه في كل مضيق؟
ليس مما تمسك العينُ ولا ما خيب القلبَ في الوهمِ :
فهذا الحرف يذوي في اشتعال الشفتين.
مثلما امتد سنا أومأ لي بينَ بنودٍ
عبرت دون أن أعرف في أي اتجاهٍ ،ومتى؟
فلقد اشهدني عسفُ الأولَى داسوا بهاء الضوء منِّي.
تحت جنح الليل في هول اندلاعٍ
كاسحٍ. ما دَمَّرَتْ مني عهودٌ
ثمّ ألقانِيَ ما بين عراة دُحِرُوا منهزمين.

....

فلتدَعْ لي
أيها الوجهُ العدائيِّ الذي يفقدني في هِبَةٍ من
آخر الأنفاس ،
ما أحتاجه منّ نبضاتٍ
قد تشظَّت بين أضلاعي من الوجد ،
فكل العشق ضجَّت بلظاه نظرةٌ تدعو
إلى عوْدٍ إلى الداخلِ
عمَّا تاه عنه القلب محتارًا
إلى حدسِ جنونْ.

...

إنهم أمواتنا في لحظة ما انسحبوا أو عربدوا
لا حرمةٌ كانت لهم ،
ديسوا فيا ألله ،فافتحْ طرقًا تحملهُمْ نحو
الذي كانوا سعَوا فيه ،
قهمْ أوزارَ بابٍ من جحيم
عَبَرُوا فيها صحارَى دوختهُم ،
ومضوا نحو متاهاتِ عمىً ،

لم يروا فيْضًا يغذّي
الجائع المقهور،
أو زحفًا أضاع الوجه في
أقسى صعيد.

...

حين كنتُ بين من لاذوا
بأحضان شرارٍ قاهرين ،
ثمّ ووجِهْتُ بمن أرسَلَ فينا
قبضة الطغيان إذ تعدو ولا ترحمُ ،
من بين سكارى ما انتشوا ،فاستسلموا
في ساعة الصَّحو ليَهْوُوا
في دُجَى تحت لَحودْ
حيث لا يُرجى رجوعٌ ،
هل ترى يسعفني فجْرٌ جديدْ ؟.

2022/11/26

من أعمال الفنان الإنجليزي «جويل ريا»

شعر

صورة الشيخ في الفكر المغربي الحديث

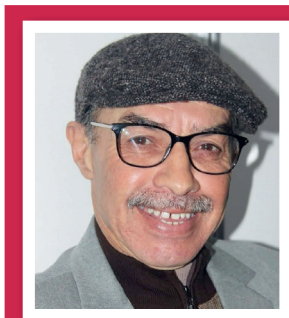

صدوق نورالدين

مقدمة: بين التمييز والوهم

1/ تقتضي الضرورة في هذه المقدمة، العودة إلى كتاب «الإيديولوجية العربية المعاصرة» بغاية إضاءة توضيح صورة الشيخ، كما استعيدت في كتاب «بين الفلسفة والتاريخ»، للدكتور عبد الله العروي.

2/ يرد في الفصل الموسوم بـ»العرب والأصالة: البحث عن الذات» من كتاب «الإيديولوجية العربية المعاصرة» الحديث عن ثلاث شخصيات انطلاقا من ضبط ثلاثة تعريفات. فأما الشخصيات فهي:

- الشيخ: ويقابله «محمد عبده»
- رجل السياسة: «لطفي السيد»
- داعية التقنية: ويجسده «سلامة موسى».

هؤلاء، كما ذكر الأستاذ «عبد الله العروي»، يمثلون ثلاثة تيارات هي في الجوهر عصب المجتمع العربي الحديث. على أن ما يستدعي الأهمية، التطرق لصورة «الشيخ» (جاء معرفا «بأل»)، والقصد «محمد عبده» كما سلف.

3 / يعرف الأستاذ «العروي» الشيخ كالتالي:

« الشيخ هو الذي لا ينفك يرى التناقض بين الشرق والغرب في إطاره التقليدي، أي كنزاع بين النصرانية والإسلام.» (1)

فالشيخ الداعية المصلح، والحالم بالتقدم، يرى أن أي إشكال اجتماعي حله في العلاقة بين المخلوق وربه. من ثم يولي النص أهمية عوض تقصي « أسباب الفشل» في الواقع :

« يبحث عن أسباب القوة و الفشل»، فيعود إلى النص، وبالطبع لا يجد سوى الألفاظ.» (2)

إن المفارقة بالنسبة للشيخ الداعية المصلح، تكمن في استحضاره صورة «الغرب». فإذا كان بالنسبة له يعتمد قيم العقل والحرية والتسامح، كمفاتيح لتحقيق النهضة والتقدم، وقد كان، فلم لم يتأت لتوافر ذات القيم في الإسلام، الإدراك نفسه.

« إذا كان العقل حليف الإسلام والتعصب لزيم النصرانية، ما بال هذه تزدهر وذاك يتدهور.»(3)

ويسقط الشيخ في الوهم عند حديثه عن «الفردوس المفقود»، أي الأندلس. إنها رمز وقد تحقق ضياعه، لولا أن التوبة والرجوع إلى الرشد وتجاوز الأخطاء بإمكانه استعادة دور العقل.

« ليست الأندلس أرضا فتحناها ثم أضعناها، إنها رمز العقل الذي كثيرا ما أهملناه أو أسانا معاملته فغادر أرضنا. إلا أن العقل لحسن الحظ، لا يحقد على أحد. سيعود بيننا بمجرد ما نتوب إلى رشدنا ونعترف بأخطائنا.» (4)

إن ما يستنتج من التذكير التقريبي والمكثف لصورة الشيخ «محمد عبده» في كتاب «الإيديولوجية العربية المعاصرة»، كونه يصدر في رؤيته وتصوره عن :

1 - فكر تقليدي

2 - يحصر الصراع بين الشرق والغرب في المسألة الدينية : الإسلام والنصرانية.

-3 يحلم باستعادة الريادة مادامت قيم النهضة الغربية متوافرة في الإسلام.

فهذه الرؤية - حسب الأستاذ «العروي- ما تزال تمتلك التأثير في المجتمع العربي»على توالي الأجيال»(5)

« كل إثبات نفي»

1

إن أول ما يثير في هذا المؤلف «بين الفلسفة و التاريخ»، الموازاة بين الذاتي/الفكري. إذا حق التمهيد بالذاتي كخطوة لإقرار الفكري كتوجه و اختيار : رجل الفلسفة أم أستاذ التاريخ. ما يحيل عليه الذاتي التذكير بمحطات حياتية وردت في الرباعية : (الغربة، اليتيم، الفريق وأوراق) كما في «اليوميات». بل إن عناصر ذاتية تفسر من منطلق فكري أو العكس. للتمثيل أسوق التالي :

- يقول «العروي» في الفصل الموسوم ب»سيرة ذاتية» : « الحقيقة أني مشيت دوما على قدمين :التاريخ والفلسفة، شأن غيري ممن زاوجوا بين الفلسفة والتحليل النفسي، أو بين العلم و الميتافزيقا، أو كما يجري به الأمر عادة، بين الفلسفة و علم الكلام».

- يرد في فصل «إسلام» : « فقدت والدتي في وقت مبكر . أما جدتي لوالدتي، التي كانت قد أخذت مكانها، فقد توفيت و أنا بعد في سن الحادية عشرة. و فيما بعد قضيت بقية فترة مراهقتي في داخليات ثانويات مختلفة.»

- يقول محيلا على «أوراق» في فصل «ديكارت» :

« لم يتمكن أستاذنا في الفلسفة من أن يقتنع أن في استطاعتي التفكير فيما كنت أكتبه في إنشاءاتي.»

- وعن رواية «الغربة» في قوله :

«..وكان هناك تمرد عمال بولونيا، و على الخصوص تمرد ساكنة هنغاريا، وتشيكوسلوفاكيا وما أعقب من موجة للاجئين.» (6)

تستعاد صورة الشيخ في هذا المؤلف بتحديد الاسم نكرة (شيخ) وليس (الشيخ). هذه الاستعادة مثلما وردت في كتاب «الإيديولوجية العربية المعاصرة»، تربط الصورة مجددا بالشخصيات /التعريفات: «رجل سياسة»، و»داعية التقنية». فالتقسيم الثلاثي السابق يستدعى للإضاءة والتوسيع - كما سبق-، وبوضعه موضع مقارنة بين مؤلفين و في زمنين: «الإيديولوجية العربية المعاصرة»(صياغة جديدة/1995)، و كان صدر بالفرنسية في باريس (1967) بتقديم من «مكسيم رودنسون»، التقديم حذف لاحقا. وترجم أول ترجمة إلى اللغة العربية في(1970) من طرف المترجم الراحل «محمد عيتاني» في (1970)، ليعيد المؤلف ذاته صوغ ترجمته. ثم «بين الفلسفة والتاريخ» (2020). فالمقارنة تحدث على مستويين: مستوى المؤلف الكاتب والمفكر. ومن يقرأ، يفسر ويؤول إذا استطاع إدراك الغاية. والواقع أن مبحثا من هذا القبيل يتطلب وقتا للتفكير والتأمل.

إن فهم صورة «شيخ» في هذا التأليف، تتأسس باستحضار شذرة « سبينوزا» : «كل إثبات نفي». ويضيف الأستاذ موضحا :»لا يفهم المرء كتاب مؤلف إلا إذا قرأ من خلاله كتاب خصمه.»(7)

فللحديث عن شخصية الشيخ «محمد عبده»، ينطلق من «سيد قطب». وأما نواة التداخل والتقاطع فمفهوم «الليبرالية».

يتساءل الدكتور «عبد الله العروي» بصدد «قطب»، عن أية ليبرالية يتحدث ؟ ويشير لوضع المؤسسات هنالك. فالنظام البرلماني مزيف، حيث يهيمن إقطاعيون بلا ثقافة ويسود الاستهتار. هذه الوضعية يسوقها الأستاذ «العروي» دون الإحالة عن أي مرجع ل»سيد قطب»، بل يعمد للمقارنة بما دعا إليه «محمد عبده» الذي يبدو نموذج نظامه البرلماني «الأكثر قبولا». يرد في سياق المقارنة :

« سيد قطب ومحمد عبد يعتمدان المراجع نفسها، ويستعملان في بعض الأحيان العبارات ذاتها، ويؤيدان الاستدلالات عينها، وعلى رغم ذلك فليس الأول شيخا بالمعنى الذي كان عليه الثاني كما أن عبده ليس شيخا بالمعنى الذي كان عليه أساتذته في الأزهر.» (8)

ما تفضي له / إليه المقارنة حسب الشاهد:

1/ كون منطلقات «سيد قطب» و «محمد عبده» واحدة.

2/ كون الخلاصات والاستنتاجات ليست كذلك.

3/ وتحديد مفهوم وصورة «الشيخ» في شخصية «محمد عبده» وليس «سيد قطب»، مثلما أن الشيخ» محمد عبده» لا يماثل شيوخ مؤسسة «الأزهر».

من ثم يولي الأهمية للشيخ «محمد عبده». (9)

2

تتحدد الخاصات المميزة للشيخ «محمد عبده» -حسب الأستاذ العروي - في أساسين :»المكان واللحظة».

ف»عبده» من حيث الولادة والنشأة، من مواليد مصر زمن محمد علي، وتحت الاحتلال الأنجليزي. (إنه من الرعايا العثمانيين تحت الحكم الأنجليزي). وأما التكوين فبمؤسسة الأزهر. ما يترتب، قوة الشخصية مجسدة في نزوعاتها المعارضة: معارضة من داخل الأزهر لأساتذته (وهو ما يذكر بصراع عميد الأدب العربي «طه حسين» داخل نفس المؤسسة). و معارضة الصحافيين المهاجرين اللبنانيين

والسوريين المسيحين. فالمعارضة تطول الديني، المدني(البرلمان) و العلمي التقني. بيد أن ما ضاعف قوة الشخصية التأثر بـ»جمال الدين الأفغاني».

«ما يهم، هو أنه انقاد إلى التفكير عن طريق ردالفعل، ومعارضة منظومة متماسكة لا تفتأ تستثيره.»(10).

من ثم يحق القول، بأن مظاهر الإصلاح في تفكيره ترتبط بسؤال «الانحطاط التاريخي»، حيث يتوجب ترسيخ الإصلاح الديني، إعادة النظر في منظومة الإدارة بغاية تثبيت العدل و فهم الطبيعة قبل استغلالها. هذه المظاهر المحددة - كما أوردها الأستاذ «العروي»- كان الشيخ «محمد عبده» يستند في رؤيته لها انطلاقا من التاريخ و ليس الواقع. وأعتقد بأنه في هذا المستوى، لم يباين المعبر عنه من طرف «سيد قطب»:

«..الواقع أن هذا الرجل، الذي يعتقد أنه يفكر تفكيرا حرا، يعيش في الحقيقة في قصر من مرايا حيث لا يكون إلا أمام نسخ مشوهة، ولا يجيب إلا أصداء». (11)

«يعتقد أنه يرد على أناس، في حين أنه التاريخ الذي يخاطبه من خلالهم.» (12).

بالانبناء عل السابق، فإن حكم الأستاذ «العروي» على «محمد عبده»، يتحدد في كونه لم يستطع فرض ذاته كعالم كلام، مثلما لم يتمكن من تقديم نظرية في التاريخ الإسلامي، ولا تأسيس نظرية في التأويل. من ثم يطرح التساؤل :

« ما الذي يمنعه من أن يتخلص من قيوده العقلية؟ جهله بأسس الليبرالية». (13)

فالمحدودية التي اتصف بها تفكير «محمد عبده»، إلى اهتمامه بالسياسة، جعلا الأستاذ «العروي» يعده «نموذجا نوعيا»، بالنظر إلى سؤاله الحاسم الذي لم يطرحه غيره من الشيوخ «لماذا الانحطاط التاريخي؟» (14). وهو السؤال الذي يرسخ صورته شيخا دون غيره. فالاهتمام بالسياسة - كما يبين الأستاذ «العروي- يتضح في دور المفتي الناصح للأمير المحمي من طرف الأجنبي. و تتجسد النصيحة في ضرورة إصلاح المنظومة التربوية،ما دامت نواة بقية الإصلاحات، والقصد يتعلق بمؤسسة الأزهر، حيث طالب الشيخ بإقامة ثانية توازيها. وهنا يكشف الأستاذ «العروي» بأن صيغة «الإزدواج الثقافي» في مصر أو غيرها، العامل الرئيس خلف ذيوع «النزعة الإسلامية» وانتشارها. من ثم ينتقد الدعوة(النصيحة):

« نصيحة غير مجدية، لأنها ناقصة. هل ينبغي إصلاح «الأزهر»؟ وإلى أي حد؟ أم ينبغي التغاضي عن هذه المؤسسة الموقورة وإقامة أخرى إلى جانبها؟ هذا ما تم في نهاية الأمر، سواء في مصر أو خارجها، مما أدى إلى خلق ازدواجية ثقافية ما زلنا إلى اليوم نرى في كل البقاع نتائجها الضارة.» (15)

وإذا كان الشيخ «محمد عبده» يمثل «نموذجا نوعيا»، فالأستاذ «العروي» يتساءل ما إن كان له امتدادات على مستوى الراهن وفي «المنظومة الاجتماعية الجديدة». ويقر بأن توافر نفس الشروط يقود إلى «النمذجة» ذاتها، ولئن كان البعد السياسي يظل مهيمنا، إلى «تفوق الآخر». وهو الإحساس النفسي الثابت:

« شيوخ آخرون جاؤوا بعد عبده. هل هم شيوخ بالمعنى الذي أخذنا به هذا اللفظ؟ نعم، عندما تتكرر الشروط نفسها، تلك هي حال عبد الحميد بن باديس في الجزائر، والطاهر بن عاشور في تونس، وعلال الفاسي في المغرب. وكلا، عندما تتبدل الأحوال العامة، خصوصا بعد حصول البلدان المعنية على استقلالها. هل مازال هؤلاء الرجال الجدد يشتركون مع عبده في شيء؟ وهل يحتفظ نموذج الشيخ بصلاحيته في المنظومة الاجتماعية الجديدة؟ «(16)

على أن ما يتولد بخصوص مسألة الإصلاح، السؤال الغائب الذي لم يستجل، والمتمثل في ربط الإصلاح السياسي الاجتماعي و الاقتصادي بالإصلاح الديني. ذلك أن «شيخ اليوم»، بالرغم من تنوع الثقافات، و توظيف اللغات «أكثر تشددا وصلابة» مما كان عليه «محمد عبده».(17)

والواقع أن هذه الرؤية تماثل ما انتهى إليه الأستاذ «عبد الله العروي» في حديثه عن الشيخ ضمن كتاب «الإيديولوجية العربية المعاصرة»، وهو ما يحيل على تماسك التصور والبناء الفكري الموضوعي المنطقي و المتين . يقول :

« ورؤية الشيخ هذه لاتزال تؤثر في المجتمع على توالي الأجيال. كانت في أوائل حركة النهضة موضوع إجماع، ثم فقدت رويدا رويدا جاذبيتها، إلا أنها لا تزال منتشرة بين جماعات يعتبرها البعض منا تقليدية أو متخلفة. هل نحتاج إلى تفكير طويل لكي نكتشفها على حالها الأصلي عند كثير ممن يدعي أنه لا يبغي سوى الحقيقة المكشوفة؟ «(18)

3

إن ما يستخلص من الأهمية التي يوليها الأستاذ «العروي» لـ «محمد عبده» :

أ - كونه «النموذج النوعي» للشيخ، رغم محدودية مرجعياته، وعدم اضطلاعه المباشر على «أسس الليبرالية».

ب - كونه ركز على الافتاء بالرهان على الإصلاح التربوي، من منطلق كونه مفتاح بقية الإصلاحات.

ت - كون نموذجه يمتلك امتدادات في ظل ذات الشروط.

ث - كون «شيخ اليوم» لا يماثل «محمد عبده»، إذ يظل

برغم المستجدات «متشددا».

خلاصات واستنتاجات

أشير إلى كون صورة الشيخ ورد الحديث عنها في كتاب «الإيديولوجية العربية المعاصرة»، واستعيدت في» بين الفلسفة والتاريخ». الاستعادة تحققت في سياق المقارنة بين «سيد قطب» و»محمد عبده»، فيما التحقق السابق تم بين «محمد عبده»، « لطفي السيد» و»سلامة موسى».

يرى الأستاذ «العروي» إلى أن المقارنة بين «سيد قطب» و»محمد عبده»، تفضي إلى استخلاص مؤداه أن المنطلقات واحدة، لولا أن صورة الشيخ تتجسد في «عبده» وليس «سيد قطب». ف»عبده» رغم محدودية معارفه وعدم اضطلاعه على أسس الليبرالية مثل ما يدعوه الأستاذ «العروي» بـ «النموذج النوعي». النموذج الذي أثار سؤال «الانحطاط التاريخي»، حيث ركز على السياسي بإسداء النصيحة للأمير (وظيفة المفتي). و التربوي، بالدعوة إلى إصلاح مؤسسة «الأزهر»، باعتبار أن نواة أي إصلاح تتأسس في نظر «عبده» بدءا من التربية. وأعتقد بأن هذه الرؤية بالتحديد، يتوافق فيها و «سيد قطب» ثم «طه حسين». يقول الدكتور «علي أومليل» عن العميد «طه» في كتابه «سؤال الثقافة»:

« شيء ما في الأزهر يذكر طه حسين بالكنيسة : كلاهما سيطر على التربية و التعليم طوال قرون. وقد خاضت الدولة العلمانية في فرنسا -قدوة طه حسين- معركة طويلة لانتزاع التعليم بالتدريج من يد الكنيسة وجعله تعليما مدنيا علمانيا. على الأزهر أن يكون مراقبا من طرف الدولة، لا أن يقوم هو بالرقابة الدينية عليها.» (19)

ما يضيفه الأستاذ «العروي» كتوسيع لصورة «الشيخ» فكرة الامتداد. ذلك أن توافر الشروط يقود إلى تأكيد الصورة، وبالضبط في البلدان التي حققت استقلالاتها. على أن شيخ اليوم وبرغم التحولات العلمية والتقدم التكنولوجي، تنتفي عنه المرونة ويظل أكثر «تشددا» و»صلابة».

وإذ نحن ربطنا صورة الشيخ بداعية التقنية «سلامة موسى»، بحكم كون التناول الدراسي الفكري يتأطر ضمن بنية ثلاثية تتشكل من ثلاث شخصيات وثلاثة تعريفات، فإن ما جاء به الأستاذ «العروي» بخصوص التمثيل النيابي البرلماني، لا يكاد يختلف والوارد بصدد «سيد قطب»، وهو ما يقود أيضا إلى تمثل التداخل والتقاطع في الرأي والموقف. يرد في «الإيديولوجية العربية المعاصرة» وهو ما انسحب/ ينسحب على برلمانات البلدان العربية برمتها اليوم، أقول اليوم، وبالرغم من كون القول صدر في (1967) سنة ظهور الكتاب، وهو ما يدل الدلالة الموضوعية القوية و الحاسمة عن أن تفكير الأستاذ «العروي» يتسم ببعد النظر، و بالامتداد الذي يجعله الفكر المتجدد بتجدد قراءاته وتأويلاته.

«تستقل البلاد و يؤسس مجلس نيابي و تبقى مع ذلك الدولة ضعيفة مهانة. هذا ما يدركه الجميع بعد برهة. لم يعم بعد الارتياب في قيمة التمثيل البرلماني، لكن النائب نفسه يعلم أن الخطبة الرنانة التي حررها بعناية تلقى فتنسى. وهذا النائب، المحامي أو الطبيب أو الصحفي أو الأستاذ الجامعي، يناور ليحتل منصبا عاليا، ثم يفوز به فيتحقق أنه لا يملك قدرة، ولا نفوذا أو أن الحاجة إليه لا تتجاوز نطاق الحفلات الرسمية.» (20)

وإذا نحن استدعينا «خصم» الشيخ، رجل السياسة «لطفي السيد» بهدف استكمال الصورة، فالمعبر عنه التالي:

« إنه، مثل الشيخ، يجيب عن السؤال، لماذا الانحطاط؟ لكنه يؤكد، على العكس من خصمه : ما يلزمنا ليس إصلاح ممارستنا الدينية بقد ما يهمنا إصلاح نظامنا في الحكم. يمكن لضرورة تحرير الإنسان من الخرافات أن تنتظر، بينما هناك حاجة ماسة للحد من سلطة الحاكم عن طريق برلمان تمثيلي وعدالة مستقلة وإلا فلا تغيير حقيقيا.» (21)

إن الأستاذ «العروي» في إحاطته بصورة الشيخ، يصل النظر بالواقع. من ثم ينتقد الصورة بالكشف عن نواقصها. بالتالي، يربطها بما يضادها «رجل السياسة» و»داعية التقنية». والأصل أن الربط يعكس الأبعاد الإيديولوجية للإصلاح في فترة الاستعمار وما بعده. الأبعاد التي حادت عن المفهوم الحق لليبرالية.

«داعية التقنية هو إيديولوجي الدولة القومية، مثلما أن رجل السياسة كان إيديولوجي الدولة ما بعد - المستعمرة والشيخ إيديولوجي الدولة المستعمرة.» (22)

يبقى القول بأن الدكتور «عبد الله العروي» في تقسيمه الثلاثي كان خلدونيا. إذ يذكر بالمعتمد في «المقدمة» حال استجلاء الفكر السياسي الإسلامي، و المتجسد في الثلاثية الفكرية : فكر الفلاسفة، فكر الفقهاء، وفكر الكتاب. يقول الأستاذ «علي أومليل « في كتابه الهام و القيم «السلطة الثقافية و السلطة السياسية « :

« إن صاحب المقدمة يستعرض الفكر السياسي الذي عرفه الإسلاميون بأنماطه الثلاثة : فكر الفلاسفة، فكر الفقهاء، و فكر الكتاب. ويحكم عليها حكما واحدا: فهي ليست من الفكر السياسي العلمي في شيء. والعلمية هنا، بحسب ابن خلدون، هي ألا يختلط الخطاب السياسي بالذاتية المعيارية.» (23)

هوامش:

1): د. عبد الله العروي : «الإيديولوجية العربية المعاصرة « (صياغة جديدة). المركز الثقافي العربي.بيروت.1995.ص: 39
2): نفسه. ص: 40
3): نفسه. ص: 41
4) : نفسه. ص: 42
5) : نفسه. ص: 42
6) : د.عبد الله العروي «بين الفلسفة و التاريخ». المركز الثقافي للكتاب. بيروت. 2020. الصفحات: 7 / 10 / 16 / 49
7) : نفسه. ص : 80
8) : نفسه. ص: 80
9) : ملاحظة : يذكرنا ما جاء به الأستاذ «عبد الله العروي» عن «سيد قطب» بما ورد سابقا عن رسالته إلى اللواء»محمد نجيب». والمتضمنة في كتاب الدكتور»محمد حافظ دياب»: «سيد قطب الخطاب والإيديولوجية». 10) : نفسه. ص : 81
11) نفسه. ص : 82
12) : نفسه. ص: 82
13): نفسه. ص : 82
14) : نفسه. ص: 83
15) : نفسه. ص: 83
16) :نفسه. ص: 83
17) :نفسه. ص: 84
18) : «الإيديولوجية العربية المعاصرة». مرجع مذكور. ص: 42
19) : د. علي أومليل : «سؤال الثقافة». المركز الثقافي العربي. بيروت. 2005. ص : 18
20) : كتاب: «الإيديولوجية العربية المعاصرة». مرجع مذكور. ص: 46.
21) : كتاب: «بين الفلسفة والتاريخ». مرجع مذكور. ص: 86.
22) : نفسه. ص : 90
23) : د. علي أومليل : «السلطة الثقافية و السلطة السياسية». مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. 1996. ص: 140.

الحُلم المُشتهى...

لوحة للرسام النمساوي كريستيان شلوي

1

شمعةٌ واحدة تكفي
لغرفة طالَها النِسيان
عَلى امتداد شارع أعرج
عبثاً ،
كنتُ أصدُّ سُعار الريح
من سياجات عتيقة
أَسحَبُ حزني ،
على مومياء المساء...

2

كيف لي
أن أقفَ
على مرآة الماء
وأن أمشي وَحيداً
على شفاه الليل المُتهجِّد
وعيناي مُتعبتان...
أنظُرُ إلى وجهي الشَّاحب
كَوردة منكمشة
لا تجرأ على النُّهُوض.

3

ككُلِ مساء ،
أتنفَّسُ شِعراً
ينسابُ
من جداول بُحور أُمّي
فَتعلو روحي
وأبدُو كطفل
ينامُ على حدِيقة النسيان.

4

بالأمس ،
كَان سكونُ الليل
يَعزف ،
علىَ أنغام أقداح النّبيذ
أغلقتُ مذياع مَسكني
وكما الظَمآنُ
في جُرعته الأخيرة
أطفأتُ أنوار يَقظتي
بين شفاه وردي
قابضاً جَمرة الغواية.

5

مُنْزَوياً...
علىَ هامش الطريق
أتطلعُ...
إلى ابتسامة القمر
في ليلة غائمة...
مَن يَصدني
عن وحشة
الأمسيات الخالدات
حيث يَنسابُ الشوق
لِشتاءٍ دافئ...

6

في زُرقة السَّماء
ورثتُ هَدير الموج
من أوَّل صرخة الولادة
أرتشفُ كؤوسَ الحُلم
بين ألَم
الرحيل
مِن عبَق
النَّشوة
المُتأرجح
بِندى العَطر
المُشتَهى.

7

مَرَّتان...
مَررْتُ منْ شُبَّاك ذاكرتي
رأيْتُ يمامَة ،
ترتَدي خيمة سوداء ،
تَرمُقُ أظافرها...
بينما شعرُها الأسود
يُرَمِّم عقْدَها...
بِخطوات شاردة.

8

علَى خيوط الذَّاكرة...
أنْقُش تميمَة ،
في بِركَة الماء الآسِن
مُطرزَة بِجمْرة عشق...
بِرُخام المَجَازاتَ
وخلْفَ قطْرة حبْر
تفيضُ شهقَةً رُوحي
تعبُرُ خاصِرة الوَجْد

9

من وجَع الأحلام
دَخلتُ مَرايا الصّمت
من كلِّ الجهات...
رأيتُ في المنام
زورقي ،
يرقَصُ في بحر الكلمات
لكني غرقتُ ،
في منتصف الطريق
أحملُ ما تبقَّى ،
من فقاعات الهوى
بَين تَجاويف ،
نُتوءات الشعراء

10

كُلَّمَا أَمعنتُ النَّظَر
في ظلِّي
فَاجأَني شُحُوب الْعُمْر
كَأن الزَّمَنَ تَوقَف
في حَوْصَلة الغيمة
لَوْلا مَطر الشِعْر ،
وسُنبُلة الْقَصيدَة.

شفيق الإدريسي

تبدأ الرحلة من المقابر

مقاربة لكتاب «في أثر عنايات الزيات» لإيمان مرسال

حنان حيون

في معنى «تتبّع الأثر»

اختارت الشاعرة والكاتبة إيمان مرسال توصيف كتابها بـ» في أثر» مانحة لهذا التعبير مضمونا محدّدا «رحلة تجاه شخص لا يستطيع الكلام عن نفسه»(ص206). هذا التوصيف بارع من عدّة نواح: رحلة بما تنطوي عليه من مشاق البحث والتقصّي، ومن ارتياد أمكنة وأزمنة متباينة، ومن فجوات وانسدادات وعثرات. رحلة لا تبتغي المعاينة التوثيقية الدّقيقة من أجل البحث عن «الحقيقة»؛ هي حوار مع أثر شخص مضى دون أن يخلف أرشيفا شخصيا يمكن من خلاله إعادة قراءة مساره في الحياة أو في الكتابة أو في أيّ حقل اجتماعي أو فكري. من لا أرشيف له، يُقتفى أثره. ومعنى غياب الأرشيف، في هذا الصدد، هو ما عبّرت عنه المؤلفة بـ»شخص لا يستطيع الكلام»، ومعناه الشخص الذي بلا ذاكرة أو تاريخ أو سيرة، شخص لم يبق منه إلا شذرات متناثرة أو أخبار شحيحة أو نصوص قليلة؛ وهذا هو حال الكاتبة عنايات الزيات (1936 ـ 1963). ماذا بقي منها؟ رواية «الحبّ والصّمت» (1967)، وورقات معدودات من يومياتها التي تمّ إعدام أجزاء منها عقب انتحارها «لم يزد عدد الكلمات على 1820 كلمة»(ص123)، دون إغفال الإشارة إلى ضياع رسائلها وقصصها التي نُشر بعضها باسم مستعار ضاع هو الآخر ولم يتذكّره أحد !.

الغياب التراجيدي

يروم كتاب المؤلّفة إعادة ترميم حياة هذه الكاتبة الموهوبة والمنتحرة التي اختارت أن تغادر الحياة بإرادتها تاركة ابنا وحيدا ورواية يتيمة. هذا الابن الذي انتحر بدوره (1957ـ1983)، وهذه الرواية التي لم تحظ بأيّ أثر في سجلّ الرواية العربية المعاصرة؛ بل ولا تذكر حتى ضمن الروايات التي ألفتها نساء في سياق ما يُنعت بكتابة المرأة ! هذا الغياب التراجيدي هو ما سعت المؤلّفة، بجهد ومثابرة وشغف، إلى تفكيك ألغازه وكشف أسراره منخرطة في رحلة تتبّع أثر قادتها إلى أشخاص كانوا على مقربة من عنايات الزيات (العائلة، الصداقات)، أو إلى أمكنة أقامت فيها (السّكن، العمل، المقبرة)، أو إلى نتف من «أرشيف» منشور في صحف أو محتفظ به في درج من الأدراج (صور، مقالات، استذكارات). بتجميعها لكلّ هذه الخيوط، تمكّنت الكاتبة إيمان مرسال من رسم صورة متعدّدة الأوجه، من إعادة ترميم قطع الحياة المتناثرة من جديد، من إعطاء الكلمة لمن لم يستطع الكلام.

عتمة الدّاخل

ولدت عنايات الزيات في أسرة غنيّة من أب مصري ذي وظيفة إدارية مرموقة في جامعة القاهرة، وأمّ من أصول تركية أرستقراطية، ومن أختين أخريين. ما أثر هذه الأسرة عليها؟ في الكتاب لا ذكر لأمّ الكاتبة كأنّها لا وجود لها. تومئ المؤلّفة إلى العلاقة «الباردة» للغاية التي كانت تربطها بعنايات، بينما كانت علاقة هذه الأخيرة بالأب دافئة للغاية. هذا العطب الأمومي مؤثّر قد يفسّر، جزئيا، ميلها إلى الانطواء والعزلة، وقد يفسّر، بمعنى ما، ذهابها لأوّل مرّة عام 1948 لزيارة طبيب نفساني لمعالجة بعض أعراض الاكتئاب. هذا المرض ــ المحتمل أن يكون وراثيا ــ هو خيط أساسي يفسّر، من بعض الجوانب، المآل المأساوي للكاتبة عنايات الزيات؛ هو المرض الذي كانت تتعاطى من أجله حبوبا (نوبات الهلع، الأرق، القلق..)، تلك الحبوب بالذات التي ستنهي حياتها «أنا لا أعني شيئا عند أحد(...) أنا إن وجدت أو لم أوجد لن تهتزّ الدنيا. خطاي لا تترك أثرا وكأنّي أمشي على الماء» (ص196)». لكنّ المؤلّفة لم تسع إلى الاطّلاع على ملفّها الصحي «أنا لا أريد الملف الطبّي على الإطلاق»(ص151)، وهذا إحجام غير مفهوم ! وثغرة لو تمّ تفاديها لاغتنى الكتاب بمعلومات طبيّة ذات قيمة ! ثمّ ما أثر التحاق عنايات بإحدى المدارس الألمانية ذات النظام التعليمي الصّارم ؟ هذه المرحلة الطويلة (من الابتدائي إلى الثانوي) لم تستكشفها المؤلّفة بكلّ ما تتطلّبها من عناية (الدروس، الكتب المدرسية، المعلّمون، النّظام الداخلي..). لكنها لم يكن يعنيها البحث عن كلّ الحقيقة، ولذلك آثرت الاهتمام بتفاصيل أخرى. ما يبقى من هذه الأسرة البرجوازية هي برودتها إلى درجة أنّ بطلة رواية «الحبّ والصّمت» تفضّل أشياء غرفتها القليلة على أفراد أسرتها. يمثّل الاكتئاب المبكّر إذن عتمة أولى احتلّت دواخلها وقضت عليها في النهاية.

الزواج اللّغز واللّغم

لم تتقدّم عنايات الزيات إلى الباكالوريا وآثرت الزواج من طيّار ميسور. ما الذي دعاها إلى هذا الزواج التقليدي؟ لا جواب واضحا، لا تفاصيل تذكر حول حيثيات هذا الحدث. هذا الزواج انتهى بطلاق سريع. نفهم من بعض أوراق يومياتها التي نجت من الموت ومن وثائق المحكمة أنّ الرجل كان فظّا قاسيا لا يحبّ الكتب والسينما، وأنّها كانت لا تجالس أقاربه وتعتزل في غرفتها دونه وقرّرت الخروج إلى العمل بغير إرادته. ثمّة شرخ صدّع العلاقة منذ بدايتها. لكنّها أنجبت طفلا سيتحوّل، في خضمّ هذا الطلاق، إلى لغم هدّد حياتها لأنّها ستحرم من الاستمرار في حضانته اعتبارا لمعاناتها من الاكتئاب. هذا الحرمان المحتمل شكّل ضغطا نفسانيا غير محتمل.

الحبّ والصّمت والموت

أنهت عنايات الزيات رواية «الحبّ والصمت» عام 1960، وأودعتها دار نشر تابعة للدولة عام 1961. عن ماذا تحكي هذه الرواية؟ عن الموت. ليس موت هشام أخ البطلة نجلاء ولا موت أحمد حبيبها الثوري، وإنّما هو الموت اليومي: الضجر والرّتابة والملل. رغم الحبّ والخروج إلى العمل وامتلاك الوعي السياسي المناهض للفقر والاستعمار والبرجوازية الفاسدة، إلاّ أنّ كلّ ذلك لم يشف البطلة من دورة الاكتئاب والعزلة «شرنقة جديدة في كلّ مرّة» (ص21). لكن، بالرّغم من الحبكة التي تحاكي جزءا من مرضها النفسي، إلاّ أنّ الرواية من حيث أسلوبها تبدو عملا سرديا ينمّ عن موهبة كبيرة في الكتابة الجديدة والمختلفة ذات الطبقات المعقّدة والمتداخلة، وذات الصوت الفردي الهامس «لغة طازجة ومنعشة، أحيانا باردة وأحيانا عاطفية (...) أحيانا متأثّرة بأجواء الرواية الرومانسية وأحيانا حديثة وغرائبية وشفافة وفريدة»(ص24). ومن المفيد أن نذكر في هذا السياق أنّ عنايات الزيات كانت تنال جوائز على قصصها التي تكتبها بالألمانية لمّا كانت تلميذة. ما أثر النصوص المكتوبة بلغة غوته عليها؟ لا جواب ! لكنّ قدر هذه الرواية غريب. كان من المنتظر أن يصل الكاتبة الشابة الردّ خلال شهرين، تأخر الردّ عامين ! في يناير 1963 تلقّت جوابا برفض روايتها ! أيّ قدر تراجيدي !

الحياة غير محتملة

بعد أن استعرضت الكاتبة إيمان مرسال هذه الخطوط الكبرى في الحياة القصيرة لعنايات الزيات، جمّعتها في بؤرة واحدة كانت بمثابة ديناميت فجّر كلّ حياتها في لحظة عابرة يوم 3 يناير 1963: الاكتئاب المزمن، الطلاق والابن المؤكّد فقدان حضانته (تقول المؤلّفة إنّ الولد لمّا يعود من زيارة والده، لم يكن ينادي أمّه «ماما» !)، والرواية التي رُفضت في ذاك اليوم بالذات ونُشرت بعد انتحارها بأربع سنوات وبنهاية تبدو مقحمة حسب تقدير المؤلّفة (الاحتفال بطلوع فجر دبابات «الضباط الأحرار»)، وإلاّ لوجدت الرواية طريقها إلى النشر منذ البداية ! هل بقيت لديها طاقة على احتمال الحياة؟ تجيب عنايات :» أحسّ أنّي قد عشت حياتي من قبل، فلماذا أوجد من جديد ! أكمل رحلة مستقبلي القديم ! «(ص152).

إيمان مرسال

في أثر الكتابة

نجحت الكاتبة إيمان مرسال في بعث عنايات الزيات من موتها، أعادتها إلى الحياة ومنحتها القدرة على الكلام، بل منحتها الوجود الحيّ بيننا كقرّاء للأدب، وأعطت لروايتها موطئ قدم في سجلّ الرواية العربية. وأحسب أنّ المؤلّفة في اقتفائها لطيْف عنايات كانت تحتفي، من جانب، بكتابتها المختلفة، قياسا بالكتابة النّسوية في زمنها، المنبئة بميلاد موهبة حقيقية في مجال السّرد بالرغم من الرواية اليتيمة والأوراق المعدودة، وتتحسّر، من جانب، على خسارة شخصية كان يمكن أن تكون لها بصمة مؤثرة لاسيما وأنّها كانت تخطط لكتابة رواية أو سيرة أو تتبّع أثر عن عالم المصريات لودفيج كايمر (1892 ـ 1957) الذي تولت تنظيم أرشيفه في المعهد الألماني للآثار حيث كانت تعمل، وكتبت جملة ظلت شاردة وضائعة بين تخطيطاتها تقول: «يجب أن تبدأ الرحلة من المقابر»(ص124).

*إيمان مرسال، «في أثر عنايات الزيات»، الكتب خان، 2019.. .

كريم بلاد

لا يتوقف المخرج المغربي مولاي الحسن الإدريسي عن الإبداع المسرحي المتميز ، فها هو بعد عمله ضمن فرقة الشعاع للمسرح ممثلا وكاتبا ومخرجا مسرحيا ، منذ أزيد من أربعين سنة [أنشئت فرقة الشعاع للمسرح بتارودانت عام 1983] ، ها هو يستمر في عملية قراءة النصوص المسرحية المتميزة ، والاشتغال عليها من أجل إخراجها عروضا مسرحية فرجوية بامتياز. يضمنها خلاصة تجربته الفريدة في الإخراج المسرحي ، التجربة التي استقاها من المداومة على قراءة الأعمال المسرحية والنقدية في مجال المسرح ، وكذلك متابعة المهرجانات المسرحية والعروض الفنية حيثما كانت داخل المغرب وخارجه. بالإضافة إلى لزومه فرقة الشعاع التي أنشأها رفقة مجموعة من الشباب الموهوبين ، واستمر يؤسس لتاريخها المسرحي ، بإبداعات نالت درجة العالمية في محلية ووطنية ودولية عدة.

وتتويجا لهذا المسار ، يقدم لنا المخرج مولاي الحسن الإدريسي تجربة متميزة جديدة ، من خلال عرضه المسرحي المونودرامي الجديد «فاتي أريان» ، الذي تقرر ضمن برنامج الأيام المسرحية الثانية لفرقة خطوات المسرح بتارودانت ، في الفترة الممتدة من 20 إلى 22 يناير المنصرم.

خيوط الحكاية

في مسرحية «فاتي أريان» لجمعية الشعاع للمسرح بتارودانت

مولاي الحسن الإدريسي

خيوط الحكاية في مسرحية «فاتي أريان»

تدور الحكاية في «فاتي أريان» حول شخصية فاظمة بنت الدوار التي حكمت عليها قسوة الأب بمغادرة مقاعد الدراسة عند نهاية المرحلة الابتدائية، والاستعداد للدخول إلى المدرسة الكبيرة مدرسة الحياة التي تنتظرها، بانتظار حمار الأحلام الذي سيغرسها في حقله بقرة حلوبا. لكنّ الحكاية لا تقف عند فاظمة وحدها، إن المسرحية حكايات متعددة، وبالرغم من أنها مونودراما، إلا أن المخرج استطاع أن يُلبس الشخصية الرئيسة مجموعة من الأقنعة التي تمكنت من حملها وتغييرها عند الانتقال من شخصية إلى أخرى، تلك الأقنعة المعلقة إلى خيوط تنزل رأسا من سقف القاعة، وتتدلى إلى خشبة المسرح. لعبت الخيوط إلى جانب حمل الأقنعة، دورا بارزا في تعيين مسار الحكايات المتعددة، وكان إمساك الشخصية الرئيسة برأس كل خيط في كل مشهد من مشاهدها، بمثابة التوجه بالخطاب إلى الشخصية الجديدة التي هي بصدد التحاور معها، أو الانتقال إلى سرد حكايتها بعد حمل قناعها المميز لها عن بقية الشخوص. وهكذا تعددت كذلك ألوان هذه الخيوط، وذلك يعكس تعددية مسارات الحكايات، مع العلم أن هناك تقاطعات كبيرة تجمع بينها، وهو ما عبرت عنه الشخصية الرئيسة في اللحظات التي تمسك فيها ثلاثة خيوط إلى نقطة واحدة، مركزها أصابعه المضمومة عليها، مع الانتباه إلى خلق مسافة ركحية بين الأفضية التي أخذت منها الخيوط والفضاء الذي تقف فيه. إنها تخلق لنفسها مسافة لتعيين الحكاية، وإعطائها بعدا واقعيا على الركح وفي الحياة. وعندما تطلق الخيوط تعود بالضرورة إلى مكانها السابق، منتصبة في الركح متدلية، لا تخبر عن شيء، إنها حكاية إنسان. يقول الشاعر جبران خليل جبران:

أعطني الناي وغن وانس داء ودواء
إنما الناس سطور كتبت لكن بماء.

تضطلع شخصية فاتي بشبك الحكايات والمسارات المتقاطعة من الخيوط المتدلية ومن ورائها كذلك، فقد تمكنت في لحظات من العرض من اللعب من خلف الخيوط، وقد يوهمنا ذلك بأنها تحكي حكاية السَّجن والاضطهاد الذي تعيشه الأنثى في العالم العربي والإنساني بشكل عام، ولكن الأمر يتعدى ذلك، فالحكاية تعاش من أمام ومن خلف الشخوص الآخرين/ أقصد الأب، وحميد الروبيو والعجوز والنادلة والفريزي وصاحب مقهى الأسماك ومخرج الفيلم وفتيات القرية ونساؤها جميعا. إننا بصدد مونودراما بأصوات متعددة، ولكن من حامل واحد هو جسد الشخصية فاتي. تقول: «حكايتي كبة من خيط كتسرب بلا ما تقادى. حكايتي متاهة والى تبعتي الخيط توصل توصل...».

حكاية فاظمة: من الحب إلى الاستغلال

صحيح أن حكاية فاظمة خيط، يمكن أن نعتبرها الأطول من جميع الخيوط المتدلية، وبالفعل كان الركح يتدلى منه خيط أبيض1 طويل مقارنة ببقية الخيوط التي كانت في مقاس واحد. هذا جانب، هناك جانب آخر يتعلق بكون حكاية فاظمة متاهة، تعززت على مستوى الديكور بتوظيف المخرج لحقيبة تحمل الأقنعة وملابس المرتحلة في الفضاءات، بين القرية وشاطئ البحر والمدينة. إنها حكاية مرتحلة، متغيرة في الزمان والمكان، لأنها بكل بساطة حكاية كل فتاة تطمح أن تغير واقعا مريرا وتحقق ذاتها بإيعاز من رعاة الفن والسينما. بالإضافة إلى كون تلك الحقيبة تتضمن متاهة مرسومة بدقة، بل متاهات متعددة، مسارات لا تخرج منها. ولقد شخصت الممثلة هذا التيه عندما انحنت على الصندوق/ الحقيبة، ومررت سبابتها على مسارات متاهة من متاهاته، تحملنا نحن المشاهدين على موقعتها ضمن متاهات الحياة العصية على الخروج. ربما طلبت دعمنا الخارجي من أجل ذلك، وبالفعل تحقق هذا التفاعل بين الشخصية في لحظات تقديم نفسها بوصفها الممثلة الصاعدة «فاتي أريان»، بطلب التصفيق من الجمهور وبحرارة.

حققت فاظمة ما لم تكن تصبو إليه، وهو أن تصير ممثلة ذائعة الصيت، بفضل سمسار التمثيل الفريزي، الذي اقتنصها من حيث كانت تجني لقمة عيش حلال، غاسلة صحون بمقهى الحاج، تحت غمرة الضليعة في (تسربايت) كلثوم. يقترح عليها الفريزي الذي يرتاد المقهى بين الفينة والأخرى التمثيل، فتوافق، وتعمل لدى مخرج مشهور، ويتم إنتاج الفيلم، وينجح، ويحقق المخرج والفريزي والممثلة «فاتي أريان» أرباحا كثيرة، لا تدوم فرحتها بها، حتى يخدعها الفريزي ويسطو على أموالها ومجوهراتها، فتجد نفسها خارج الفن وخارج الأوتيل، في الشارع من جديد. فتعاد الحكاية من جديد.

قبل عملها بالمقهى، وبعيد خروجها من المدرسة تزوجت فاظمة من رجل بلا اسم ولا ملامح من قاطني الدوار، وبمجرد ما أنجبت بنتا أسمتها نجمة. وعانت فاظمة الأمرّين مع والدة زوجها، ثم ظهر العاشق بائع السمك، فتعلقت به، وهرب بها نحو البحر، هناك إلى جانب مقهى الحجيج بوسيف، اشتغلت ببيع السمك، حتى غاب الروبيو، وصار يعرف في المنطقة بالغائب أو المرحوم. ما لبث الحجيج أن أرغمها على العمل معه في المقهى تساعد كلثوم، ولكن فردا يدعي انه من عائلة الروبيو حضر، فطردها من بيتها بدعوى أنها تزوجت من الروبيو من دون عقد زواج، وأنها كانت تعيش معه في الحرام.

لم تكن المسرحية خالصة لحكاية فاظمة وحدها، ولكنها تقاطعت مع حكايات أخرى لفتيات القرية، وحميد الروبيو بالخصوص. وتلك هي طبيعة الحياة التي نحياها. فحيواتنا تتقاطع مع أطراف قد تربطنا بهم علاقة ما وقد لا تكون ثمة أية رابطة. إنها حياة متشابكة حدَّ التيه.

البناء الدائري للحكاية

بناء الحكاية دراميا كان دائريا، بحيث بدأت قصة فاظمة من النهاية، ولن نعرف نحن المشاهدين أنها النهاية حتى تصل خلال جريان العرض إلى نقطة النهاية التي كررت فيها المشهد الأول بحذافيره، في صمت دال، وإيماء جسدي قال كل شيء دون أن ينطق بشيء. وهو خروج الممثلة فاتي من الفندق الذي احتضنها خلال فترة إقامة مهرجان سينمائي شارك فيها المخرج الذي اختارها لتقديم فيلمه الجديد، الأمر يتعلق بطردها بعد أن تم السطو على مجوهراتها وأموالها من قبل الفريزي والمخرج معا، الشيء الذي جعلنا نحن المتتبعين نصطدم بقوة الخطاب الموجه إلى هؤلاء من لدن فاتي، بحيث انهالت عليهم بالسباب والقذف والتعيير بالأصبع الأوسط. تقول فاتي:

- «تفووو... هاني غادي نرجع ليكم يا ولاد الكلاب وغادي تعرفو ملايكة الملايكة اللي جريتو عليها علاش كادا».

على أن تشخيص الحكاية في «فاتي أريان» بني بشكل احترافي، سواء على مستوى كتابة النص الدرامي أو على مستوى العرض التي تمت مشاهدته؛ فقد أسهمت المؤثرات الصوتية في مفصلة الحكاية، والخروج من حكاية إلى أخرى، أو من موقف إلى آخر، أو من مشهد مسرحي إلى مشهد جديد. انقسمت هذه المؤثرات إلى نوعين:

الأول: الأغاني التي أداها الفنانان المختار بلخضير وفاظمة كبية، بروح فنية، وإيقاع زجلي مربك، وهي أغان تتظافر مع ملفوظ الشخصية في إبراز معاناتها وطموحها وأحلامها وتصوير واقعها ككل. ومعلوم أن العرض تخللته أربع أغان، هي: العاداك، واهيا البنات، حتى ونكون، وكيف المعمول؛

الثاني: المؤثرات الصوتية المسجلة: ونخص بالذكر فلاشات الصحفي المصور المواكب لتجربة فاتي منذ نهايتها إلى نهايتها، وصوت انكسار الزجاج، الذي شغل حيزا هاما من محطات العرض بوصفه يرمز إلى تحطم أحلام الفتاة الطوباوية في التعلق بواقع زائف في ظل السلطة الذكورية المتمثلة في الأب، وسلطة العادات والتقاليد المتمثلة في صوت العجوز. بالإضافة إلى موسيقى العرس التي فرقت زمنيا بين فاظمة الفتاة وفاظمة الزوجة بين ليلة وضحاها. وكذلك أصوات الصفير والتصفيقات.

الخاتمة

في نظرنا، يكون نجاح العرض المسرحي من قوة النص المسرحي المنطلق منه، وطبعا دون إقصاء عوامل أخرى متعددة، منها تجربة المخرج، والسينوغرافي2 والمؤثرات الصوتية وفئوية الجمهور المشاهد. وهذه العناصر اجتمعت في مسرحية «فاتي أريان»، المسرحية التي يصعب الاكتفاء بورقة نقدية لتقريبها من المتلقي، ولتأريخ تأثيرها في المشاهد. فقد نجحت للاعتبارات السابقة، ولكنها نجحت أيضا لأنها مونودراما، قامت الممثلة صفية زنزوني بتشخيص ممتاز لكافة أطوار الحكاية، وتقمصت الشخوص المتعددة على اختلافها باحترافية قل نظيرها، لا يمكن أن نطلق عليها غير الممثلة المسرحية الكبيرة.

انتقلت من الطفلة التي كانتها بعيد وصولها المرحلة الابتدائية، إلى الزوجة في كنف الأسرة، إلى العاشقة الباحثة عن التحرر، إلى العاملة في المقهى، إلى الممثلة الصاعدة. وفي خلال ذلك، مرت بنا نحو كل ذلك، من خلال تقمص أدوار نسائية ورجالية، يصعب على الممثلين الرجال تأديتها، الحجيج بوسيف، والفريزي، وحميد الروبيو... كما أتقنت الأدوار النسائية: كلثوم النادلة، العجوز في القرية... ومهرت جسدها بصورة تجعلنا نفهم الخطاب دون النطق به. كما تجعلها كممثلة تنتشر في الركح، وتستغل كل مسافة فيه، أحسسنا أننا نشاهد عملا مسرحيا يضج بالحركة، ويعتمل بكثرة الشخوص. ولكن الخشبة لم يكن عليها غير الممثلة زنزوني وخيوط الحكاية والحقيبة المجرورة، ثلاثة عناصر تدمج العرض في صميم «المسرح الفقير».

أكادير 24 يناير 2023م

هوامش:

1- الأبيض لون يرمز إلى الصفاء والصدق والنية الخالصة، وتلك حياة فاظمة وسمة شخصيتها البارزة.

2- أعدت أقنعة هذا العرض المسرحي الممثلة نفسها صفية زنزوني.

محمد عابد الجابري

طه عبد الرحمن

مترجمون للجابري وطه عبد الرحمان ضمن المتوجين بجائزة الشيخ حمد للترجمة

بالدوحة الإعلان تم الإعلان أخيرا عن أسماء الفائزين بجائزة الشيخ حمد للترجمة والتفاهم الدولي، والتي ضمت متوجين قاموا بالترجمة من العربية الى التركية لكتابي «روح الحداثة « للمفكر المغربي طه عبد الرحمان و»المثقفون في الحضارة العربية « للمفكر المغربي الراحل محمد عابد الجابري.

وهكذا تم خلال حفل ترأسه الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، أمير قطر السابق، الإعلان عن فوز محيي الدين ماجد بالمركز الأول في فئة الترجمة من اللغة العربية إلى اللغة التركية عن ترجمة كتاب «تفسير ما بعد الطبيعة» لابن رشد، وبالمركز الثاني كل من محمد أمين مشالي ومنتهى مشالي عن ترجمة كتاب «روح الحداثة» للمفكر طه عبد الرحمن.

وفاز بالمركز الثاني (مكرر) نعمان قوقلي عن ترجمة كتاب «المثقفون في الحضارة العربية» للمفكر المغربي الراحل محمد عابد الجابري، فيما جاء في المركز الثالث كل من عثمان بايدر وأزجان أقداغ عن ترجمة كتاب «دلالة الحائرين» لموسى بن ميمون، في حين حل في المركز الثالث (مكرر) صونر دومان عن ترجمة كتاب السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية» لابن تيمية.

كما تم تتويج الفائزين في فئة الترجمة من اللغة التركية إلى اللغة العربية، ومن اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية ومن اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية إلى جانب تتويج الفائزين في فئة الإنجاز فضلا عن منح عدد من الجوائز التشجيعية، لكل من هيئة العلماء المسلمين في تنزانيا – اللغة السواحلية، ودار الكرمة (مصر)، ومؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، والمترجم المصري أحمد شكري مجاهد.

ربيعة ريحان ومحمد هرادي في القائمة الطويلة للجائزة العالمية للرواية العربية لعام 2023

ضمن **16** رواية في القائمة الطويلة للجائزة العالمية للرواية العربية في دورتها للعام **2023**، توجد الروايتان المغربيتان «بيتنا الكبير» لربيعة ريحان و»معزوفة الأرنب» لمحمد الهرادي.

وذكرت الجائزة في بيان، أن اختيار القائمة الطويلة جرى من قبل لجنة تحكيم مكونة من خمسة أعضاء، برئاسة الكاتب والروائي المغربي محمد الأشعري، وعضوية كل من ريم بسيوني (أكاديمية وروائية مصرية)، وتيتز روك (أستاذ جامعي ومترجم سويدي)، وعزيزة الطائي (كاتبة وأكاديمية ع مانية)، وفضيلة الفاروق (روائية وباحثة وصحافية جزائرية).

وأوضح البيان أن القائمة الطويلة تضم كتابا من تسع دول عربية هي المغرب والأردن وسوريا والسعودية والعراق وسلطنة ع مان وليبيا ومصر والجزائر.

وتعالج الروايات المرشحة قضايا متنوعة، من الهجرة وتجربة المنفى واللجوء، إلى العلاقات الإنسانية، سواء منها العابر أو العميق. كما تستكشف الروايات عالم الطفولة وتجارب التحول من الطفولة إلى النضج، مظهرة من خلال ذلك الاضطرابات السياسية المتشعبة وشتى الصراعات الفردية والجماعية.

وقال محمد الأشعري، رئيس لجنة التحكيم : « تتميز روايات هذه السنة بحضور واسع للروائيات العربيات وبتنوع كبير في الموضوعات وفي طرائق السرد ».

عبد الغني أبو العزم

لا يعتبر فقط آخر المستشرقين الفرنسيين ، بل هو أيضا أديب وشاعر ، إنه صاحب رواية «ليلى ، آه يا عقلي» ، البروفيسور والمفكر الموسوعي «أندريه ميكيل» ، الذي ودع عالمنا يوم 72 دجنبر 2202 عن عمر يناهز 39 سنة ، لن نكتفي بخبر الوفاة كما تقاذفته سريعاً الصحف الورقية والإلكترونية السيارة ، لأن حياة فكرية بهذا الطول والعرض ، تستحق من الكلمات ، كمية تغلق كل ثقوب النسيان في الذاكرة ، وقد اقترح الأديب الأكاديمي اللغوي عبد الغني أبو العزم ، أن نطيل في عمر الذكرى بهذا البحث الذي سبق نشره في ملحق «العلم الثقافي» ، وفاء لأندريه ميكيل الذي استلهم أروع أعماله الفكرية واللغوية والأدبية ، من التراث العربي الإسلامي ، ونظرا لطول هذا البحث وأهميته ، فقد نشرناه في حلقات ، وننشر اليوم جزءه الثالث والأخير ، يبقى أن نلمح إلى أن هذا البحث الذي نشرنا جزءه الأول في ملحق الخميس الماضي ، هو في الأصل ، عرض كان قد قدمه كاتب «معجم الغني الزاهر» ، في لقاء بمؤسسة علال الفاسي.

قراءة لكتاب محاورات بغداد* لأندريه ميكيل

الجزء الأخير

إذا أردنا أن نتحدث عن التقدم العلميّ والحداثة بمفهومها المعاصر، فلا منأص من تسجيل بداياتها الأولى، انطلاقاً من عصر المامون، والمنبثقة عن الفكرة الإسلاميّة منذ نشأتها، إذ نجد النموذج الأفضل في القرن السابع الميلاديّ للحديث عن المادة الخام بمفهومها المعاصر، حيث تجلت في العناصر الأساسيّة التي تضمنتها فصول كتاب محاورات بغداد والمحددة فيما يلي:

- التسامح المطلق مع الديانات السماويّة/ التوحيديّة؛
- إحداث توافق حيّ معبر عنه بالوقائع بين السنة والشيعة؛
- تحديث بناء الدولة وسلطتها المركزيّة؛
- إحداث آليات التنظيم الإقليميّ والجهويّ، ومراعاة أوضاع الفئات والطبقات الاجتماعيّة؛
- تنظيم الأسرة، وإحقاق حقوق المرأة؛
- التمييز بين القانون الإلاهيّ والقانون الوضعيّ؛
- إفساح المجال للعلوم التطبيقيّة، بما فيها الأرصاد الجويّة، والصنائع، والمعمار والري، والفلاحة؛
- تطوير الهندسة المعماريّة، والموسيقى والخط، والفن التشكيليّ والشعر والنثر.

لقد شكلت كل هذه العناصر أسس الحداثة العربيّة الإسلاميّة، وقد تم التعبير عنها في محاورات بغداد بما أحدثته من انقلاب في المفاهيم السائدة في المركز، كما في المحيط، وأضحت بغداد بذلك النموذج الأمثل، وهي تتغذى بالعلم والمعرفة والترجمة، واستيراد الأشكال الهندسيّة والمعماريّة، ثم تصديرها فيما بعد إلى الأقاليم، مما جعل منها مدينة حداثيّة بكل رموزها الفكريّة والوقائعيّة، وفضاء للعيش المشترك بين المجموعات على اختلاف آرائها ومعتقداتها، مما سمح بخلق فضاءات جديدة للإبداع شعراً ونثراً، وموسيقى وتشكيلا.

كل هذه الروائع، والبدائع، سمحت بفتح المجال لتبادل ثقافيّ وإنسانيّ بين مختلف الحضارات، وأضحت مصدراً من مصادر المعرفة الإنسانيّة في شموليّتها.

وعندما يتم الحديث عن الحداثة في عصر المامون، فلأن أساسها المحوريّ يكمن في أنها حققت بالملموس الأرضيّة الخصبة لمختلف الأجناس الكتابيّة وأساليبها التعبيريّة، الأمر الذي أدى إلى الانفتاح على الآخر، وخلق إمكانية التخيّل لإنشاء فضاءات فسيحة للإبداع الفكريّ والأدبيّ والفنيّ، وإنجاز في آن واحد فرص التبادل الثقافيّ في شموليّته.

يمكن في هذا الصدد المزج بين ما هو تخيّليّ، وما هو عقلانيّ، لقد كان العقل قاعدة للتفكير والإنجاز في عهد المامون، فارتبط بمجمل أهدافه بالمتخيّل، والمتخيّل في هذا المضمار ما هو إلا مجال لإفراغ الحمولات الواعية وغير الواعية في الإنتاج الأدبيّ والفكريّ، ودعوة للالتقاء بالآخر، على قاعدة حرّيّة الرأي والتعبير، وهذا ما استطاع عهد المامون تحقيقه انطلاقاً من قلعة بغداد.

لا شك أن بناء كتاب أندريه ميكيل على المحاورات، ما هو إلا دعوة للحوار، ومن خلال وقائع معيشيّة، وأحداث تاريخيّة متداولة، حوارات قائمة على التخيّل، وهي تستدعي بالضرورة الآخر، مهما كانت اقتناعاته الإيديولوجيّة والدينيّة، مختلفة أو متشابهة، ولأنها حوارات ترمي في نهاية المطاف إيجاد أرضيّة مشتركة للتفكير والتفاعل.

حضور الذات الفردية.. ذات الكاتب

ما لا يمكن إغفاله في عرض محتويات كتاب محاورات بغداد هو حضور ذات الكاتب الذي هو أندريه ميكيل الذي يضع مسافة بين اقتناعه الدينيّ، باعتباره مسيحيّاً مقتنعاً بعقيدته، لينشئ متخيّلاً اجتماعيّاً وفكريّاً يدعو من خلاله الغرب إلى فهم أسس العقيدة الإسلاميّة، وما قدمته للفكر الإنسانيّ من عطاءات عبر التاريخ، هذا هو الهاجس الأكبر المحرك لهذه المحاورات، وباعتباره آخر إنتاج أدبيّ في جعبة المؤلف، أبى إلا تضمينه خلاصة تجربته البحثيّة والفكريّة تجاه الإسلام.

إنما ما يميز بهذا المنظور كتاب أندريه ميكيل، كونه ينطلق من ثقافته الوطنيّة إلى ما هو كونيّ، متجاوزاً الاختلاف، في محاولة لإيجاد أرضيّة لتطابق مّا، أو تلازم مّا، أو تكيف مّا، ولم تكن وسيلته في ذلك إلا التخيّل، وأعتبر التخيّل في هذا المضمار فضيلة فكريّة، وحتى في انفصالها عن الواقع، لكونها تخلق وعياً يريد ألا ينفصل عن الواقع في نهاية المطاف، وبذلك لا يتعالى عليه، ولكن الرغبة تحدوه لربط الاتصال بالحياة اليوميّة، وكما كانت عليه في عهد المامون، وكما يريدها أن تكون عليه في حياتنا المعاصرة، حيث نجده في هذا الإطار التخيّلي يبحث عن الصيرورة الزمنيّة وأساليب القطيعة الإبستمولوجية بين عصر المامون، وما جاء بعده، ودوافع إجهاض تجربته الرائدة، بسبب سد باب الاجتهاد، وهذا ما يعبر عنه صراحة، وإن كانت هذه خلاصة من خلاصاته، فإنه يسعى بين هذا وذاك، إلى إثارة الانتباه إلى العطب التاريخيّ في محاولة لخلق إمكانية التوازن بين ما هو زمانيّ وموضوعيّ، وبين ما هو فرديّ وجماعيّ. إن من فضائل التخيّل في كتاب محاورات بغداد أنه ينطلق

من إعمال الفكر والنظر، ومن نماذج تطبيقيّة لاستقصاء تجربة تاريخيّة، فريدة من نوعها، يتداخل فيها الصراع السياسي في أفق ترسيخ أسس السلطة المركزيّة، وتأمين الأمن بمفهومه العام في الأقاليم من جهة، وبين الصراع الفكري القائم بين المذاهب والمعتقدات الدينيّة من جهة أخرى.

لقد استطاع المامون بفكره الثاقب إحداث نقلة نوعيّة تركيبيّة في سياق النشأة الإسلاميّة التأسيسيّة في قرنيها الأول والثاني، وفي سعيه الدؤوب لتثبيت مسارها في المجتمعات العربيّة الإسلاميّة، وثقافاتها التنويريّة والحداثيّة.

لم يكن الهدف من تأليف كتاب محاورات بغداد مجرد نزعة أدبيّة روائيّة تجريبيّة، بل جاء تعبيراً عن إرهاصات فكريّة لما يحدث في العالم العربيّ والإسلاميّ من هزات عنيفة في العقود الأخيرة، وفي علاقته بالغرب الأوروبيّ، وما يتعرض له من هجوم شديد حول أسسه الفكريّة، وما يصاحب ذلك من انفعالات ذاتيّة.

إن وعي أندريه ميكاييل يشير إلى ذلك، وكأنه يريد أن يعيد الأمور إلى نصابها، في زمن اختلطت فيه الأشياء بخلفيّات السياسة، ومقتضيات العولمة، حيث يلاحظ تضخيم ما هو سياسيّ على ما هو فكريّ أو تأمليّ.

لا شك أن أندريه ميكيل وهو يمتح من متخيّله متأملا ومستقصياً للمنجزات الفكريّة والعمرانيّة في عهد المامون، نجده يرسل رسائل مرموزة، يدعو من خلالها المفكرين والكتاب والمبدعين العرب الذين يتحدثون عن تحديث العقل، وتنظيم المؤسسات، وإقامة هياكل جديدة في حياة المجتمع إلى إعمال الفكر في المنجز التاريخيّ، وفي سلوكه وقيمه ورؤاه التنويريّة، واستحضار نماذج بداية نهضة حقيقيّة بكل مظاهرها المتجليّة في الإنتاج الفكريّ والإبداعيّ، والأعمال التطبيقيّة، وفي مجال الترجمة، أداة الانفتاح على المجتمعات القريبة أو البعيدة، والبحث العميق في أسباب النكوص والردة الفكريّة. يمكن أن نقرأ من خلال السطور وما تفصح عنه المحاورات أن هناك دعوة ضمنيّة لدعاة الحداثة من المعاصرين العرب الذين تشكلت رؤيتهم لمفهوم الحداثة من منطلقات الغرب، أن يعيدوا النظر في فهمهم لمكونات الحداثة الغربيّة، وفي مفارقاتها وتناقضاتها، ولأن الأمر في هذا التوجه لا يعدو كونه مجرد استنساخ لأنماط فكريّة وسلوكيّة، ولن تشكل بأي شكل من الأشكال النموذج الأرقى لمفهوم الحداثة.

أعتقد أن إعادة قراءة التاريخ، سواء في واقعيّته أو متخيّله، قد يسعفنا لرصد اللحظات المشرقة، أو المظلمة في آن واحد، مما يسمح بالضرورة لا بفهم وقائع المرحلة المعاصرة واختلالاتها فقط، بل للاندماج في سياق ما هو مشرق أو مظلم، أي البقاء في دوائرهما لإقامة حداثة منبثقة من صلب تاريخنا، لا لأنه غني بكل دلالاته، بل لكون الانزياح عنه يعمق أكثر العزلة والغربة، مما يخلق الانسداد الفكريّ، ويَضحَى بذلك لا هو عربيّ ولا هو غربيّ، ولأن من أسس الحداثة البقاء في الضوء التاريخيّ المعيشيّ، والارتباط به إحدى العلامات التنويريّة، دون إنكار الانفتاح على ما هو محدث وإبداعيّ وفكريّ متجدد، وبعد نظري إدراكيّ لمقتضيات العصر ومنطلقاته، وإظهار ما هو أساسيّ هنا، يتجلى في مدى القدرة على الإنتاج الذاتيّ، والبقاء في إطار عناصر الهويّة الوطنيّة والتاريخيّة، دون التخليّ عن قيمة النقد، والنقد الذاتيّ، في صيرورة التحولات الجارية.

وخلاصة القول، يمكن إجمال الدوافع التي كانت وراء تأليف كتاب محاورات بغداد فيما يلي :

1 -إعادة تحليل الخطاب حول فعّالية تأسيس الدولة الإسلاميّة بعد مرور قرابة قرنين على ميلادها، ولم يكن رصد مرحلة المامون على قصرها مجرد انتقاء تاريخيّ، بل جاءت تعبيراً عن ذات المؤلف لصياغة مواقف جريئة، مبرزاً أوج قيمتها، والأدوار الهائلة والاستثنائيّة التي أداها الخليفة المامون بوعي فكريّ، وانفتاح على الثقافات العالمة، وعلى قاعدة لا تعارض بين العقل والدين.

2- بناء الدولة يتطلب حضور المعرفة العلميّة في سياق المبادئ الأساسيّة التي جاء بها الإسلام، في صيرورته التي امتدت عبر الآفاق، وعلى قاعدة النقد العقليّ الذي أضحى بُعْداً إنسانيّاً في تعامله مع محيطه لخلق شروط نهضة فكريّة وفلسفيّة، وقد تم التعبير عنها في بداية عصر الأنوار، لكونها استطاعت أن تدمج في آن واحد بين العلوم التجريبيّة : الهندسة المعماريّة، والفلاحة والري والطرق التجاريّة، والأرصاد الجويّة، والموسيقى وأجواء الطرب والتشكيل، ومختلف الفنون والحرف والمهن، وكذا العلوم الإنسانيّة التي عرفت بدورها ترسخاً في الآداب والفلسفة وعلوم اللغة.

3-ترسيخ مبادئ تجاوز الاختلاف والتناقض، بإيجاد أرضيّة التلاقح الفكريّ والعقديّ بين مختلف الاتجاهات الفلسفيّة والدينيّة، وهذا بالذات ما تم إيضاحه في الفصل الثاني من الكتاب، لأن في التواصل، ما يسمح باشتغال مؤسسات الدولة وعلاقاتها بمحيطاتها الشاسعة، ولأن اكتساب المعرفة لن يتم من دون إعمال الفكر والعقل معاً، وإتاحة الفرصة لكل التعبيرات الممكنة، لكي تعبر عن آرائها، وبكل ما له علاقة بالتخيّل: ألف ليلة وليلة، والمقامات، وكليلة ودمنة نموذجاً، من دون نسيان مخيّلات الذاكرة الصوفيّة وبكل أحلامها وتصوراتها الذهنيّة، ولكونها من النماذج القائمة على ذاكرة المتخيّل، ولأنها تعد مصدراً من مصادر الإدراك والفهم لمجريات المجتمع ووقائعه المتشابكة، وتراكم معارفه، والوعي بها.

4- رصد التحولات التي طرأت على العالم الإسلاميّ بعد نهاية عهد المامون، أسبابها العميقة والظاهرة، وما ظل كامناً في جوهرها، هنا نجد بالذات أندريه ميكيل يلخصها في جملة واحدة: إغلاق باب الاجتهاد، حيث استعاد الفكر التقليديّ سيطرته المطلقة على مقاليد الأمور، فضلاً عن سقوط بغداد على يد المغول، وانتقال السلطة المركزيّة إلى تركيا، وازدياد مظاهر الانحطاط، وتدهور حياة المجتمعات وانقساماتها، وإعادة سطوة النزعات الدينيّة المتطرفة والطائفيّة، هذا بالإضافة إلى مخلفات الحروب الصليبيّة والغزو الاستعماريّ، كل هذه العوامل أدت إلى انكماش المجتمعات العربيّة والإسلاميّة على ذاتها، وكان ينبغي انتظار القرن التاسع عشر للحديث عن اليقظة العربيّة ونهضتها، في محاولة لإيجاد أرضيّة جديدة لانطلاقة واعية، وإن لم يستقم عودها فيما بعد، إذ لم تجد تربتها الملائمة، إلا أنها مع ذلك أنتجت تراثاً نهضويّاً، أدباً وفلسفة وعلومَ اجتماعيّة. يشير أندريه ميكيل في هذا الصدد أن هذه النهضة المجهضة أيضاً تذكره بامتياز بعصر المامون الذي يعتبره بهياً ورائعاً بكل المقاييس.

5- ظهور عداءات قديمة في المرحلة المعاصرة التي نعيشها الآن بكل حمولاتها الدينيّة حول الظاهرة الإسلاميّة، وما رافق ذلك بعد الحادي عشر من سبتمبر (2001)، من عمليّات إرهابيّة، والمدانة مسبقاً، وما يتنافى وروح الإسلام القائمة على التسامح والتعايش والانفتاح على الآخر، وكما برز كل ذلك في عصر المامون، وهذا بالذات ما أراد أندريه ميكيل تأكيده بكل أريحيّة وصدق وتفان.

هوامش:

*** André Miquel, Les entretiens de Bagdad, Un islam des lumières, éd. Bayard, Paris, 2012.**

-* من هو أندريه ميكيل ؟

-مستعرب فرنسي، ولد سنة 1929، وهو البالغ من العمر الآن 84 سنة أطال الله عمره.

- خريج المدرسة العليا للأساتذة، 1950-1953.

- حاصل على شهادة التبريز في مادة النحو.

- التحق بالمعهد الفرنسيّ للدراسات العربيّة بدمشق، 1953-1954.

- كلف بمهمة في إثيوبيا.

-عين أستاذاً بثانوية باسكال في كليرمون فيرون.

-التحق بالسلك الديبلوماسيّ، كي دورسي (**quai d'orsy**) سنة 1957 إلى غاية سنة 1961.

-كلف بمهام الشؤون الثقافيّة لمنطقة إفريقيا وآسيا.

-التحق بالسفارة الفرنسيّة بمصر كمكلف بمهمة ثقافيّة.

- بعد عودته إلى فرنسا، قرر أن يضع حداً لطموحه الديبلوماسيّ، حيث قرر التفرغ للبحث والأدب والكتابة والترجمة؛ وهنا سيبدأ مساره علمياً، إذ عين أستاذاً للغة العربيّة وآدابها بجامعة إكس بروفانس من سنة 1962 إلى سنة 1964. ثم التحق بعد ذلك بالمدرس التطبيقيّة للدراسات العليا، من سنة 1964 إلى سنة 1968 حيث تخصص في دراسة الجغرافيّين العرب، وتفرغ لإنجاز أطروحة الدولة في الآداب، تقدم بها سنة 1967.

-عين أستاذاً بجامعة فانسان، ثم عين أستاذاً بجامعة باريس الثالثة، ابتداءاً من سنة 1970 إلى سنة 1976.

- عين أستاذاً كرسيّاً بكوليج دو فرانس للغة العربيّة وآدابها، خلفاً للأستاذ جاك بيرك. وظل يشغل هذا المنصب إلى غاية سنة 1979، وتحمل في آن واحد مسؤوليّة المحافظ العام للمكتبة الوطنيّة، 1984-1987.

-يتقن اللغة اللاتينيّة واليونانيّة والألمانيّة، فضلا على إلمامه باللغة العربيّة.

-أنجز خلال مساره العلميّ أزيد من 60 كتاباً ما بين تأليف وترجمة.

ضدا على الشيخوخة

إبراهيم أقنسوس

هو موضوع طريف ودقيق، يعالجه الأستاذ الكبير، الكاتب والروائي المغربي عبد الكريم غلاب، بلغة أنيقة، تجمع بين الحكي عن الذات، وبين التأمل العلمي والفلسفي، في هذه الفترة العمرية، التي تسمى الشيخوخة (1). وعلى امتداد هذا البحث، يبدو الكاتب مصرا على رفض هذه الشيخوخة، بالمعنى السائر والمتعارف عليه بين الناس ؛ فلا وجود للشيخوخة حقا إلا في شعورنا، (إنك شيخ بقدر ما تشعر بذلك) (ص: 164)، ويبدو الأستاذ غلاب، مهتما بإعادة كتابة تعريف جديد، لهذه المرحلة العمرية من حياتنا، مؤكدا أن الشيخوخة الحقيقية، هي شيخوخة الفكر، (ص: 5)، ولا علاقة كبيرة لها بالسن، ولذلك قد يشيخ الإنسان وهو بعد شاب، وهو في ميعة الصبا، بلغة الكاتب (ص: 6) ؛ فالشيخوخة في رأي غلاب، هي حالة فكرية، للسن دور فيها، ولكنه ليس حاسما في صنعها (ص: 44)، فلا معنى للشيخوخة لمن يريد المعالي؛ وكثير من الشيوخ كانوا مثالا للشباب في مواقفهم، ويستشهد الكاتب بأحداث من تاريخ المغرب الحديث (ص: 52-53)، في هذا المعنى؛ فالشيخوخة لا تقاس بعدد السنين، يقول الكاتب: (لا أذكر عام ميلادي إلا حينما أطالب بتسجيل معلومات شخصية في ورقة رسمية، لا أكتم نفسي أن ذلك يفاجئني أحيانا، فلا أكاد أصدق ... أزعم لنفسي صادقا أنني أصغر من سني، سعيد بذلك) (ص:62)؛ كل هذا لأن الشيخوخة لا تعني العجز، بالنسبة إلى الكاتب، ولا تعوقه عن كل أنشطته التي يزاولها ويحبها، فهو يحضر العروض المسرحية (ص:76-77)، ويتابع أجمل الإبداعات السينمائية، حضوريا، في نهاية الأسبوع، كما يحضر مرة في السنة سهرة لأم كلثوم؛ ولا يفوت الكاتب هنا أن ينعطف قليلا، ليدلي برأيه حول معنى المسرح والسينما والموسيقى، كما يراها (ص: 77-78-79)، ثم يعود ليؤكد أنه مع كل هذا، كان لا يفتر عن ممارسة أنشطته السياسية، ولا يعتبر الشيخوخة مانعا لذلك (ص:89)؛ فالشيخوخة عنده ضد الموت، بعكس الإعتقاد السائد، وهي فضاء للحب وللتواصل الفكري، (بين الذين فكروا قبل خمسة آلاف سنة، لأنهم كانوا أحياء، والذين سيفكرون بعد خمسة آلاف سنة، لأنهم سيكونون أحياء) (ص: 122)، ويتوقف الكاتب عند رؤيته للموت، في علاقة بموضوع الشيخوخة، ويحكي مصابه في العديد من أصدقائه وأساتذته (ص: 123 ...147)، ويستدعي أزمنة كان للشيوخ فيها حضور وأعمال يعرفون بها، ويعرض لنماذج من هؤلاء الشيوخ (ص: 150 ...155)، ويذكر جده من بينهم، وما كان يتمتع به من قوة وإصرار(ص: 159)، كما يحكي عن جدته، وجدة والده، في إشارة إلى ضرورة مغالبة المرأة للشيخوخة، تماما كالرجل (ص:155-156). يقارب الأستاذ عبد الكريم غلاب، موضوع الشيخوخة، في معرض تقديمه لفصول من سيرته الذاتية، بما يعضد قراءته لهذه المرحلة الدقيقة من عمر الإنسان، فيورد مجموعة من الأمكنة التي مر بها، (ص: 47)، وبعض أصدقائه الذين سعد بصحبهم، كما حزن كثيرا لفراقهم (محمد بن عبود، عبد الكريم ثابت، أحمد بن المليح، عبد المجيد بن جلون)، (ص:125 إلى ص145)، وكذا بعض أساتذته الكبار الذين تتلمذ عليهم (طه حسين، أحمد أمين، أمين الخولي، محمد مندو، لويس عوض...) (ص: 146)؛ كما يورد الكاتب في ثنايا حديثه عن سيرته الذاتية، بعض الأحداث التي كانت تعيده في كل مرة إلى الشيخوخة، بالمعنى القيمي للكلمة؛ شيخوخة الفكر والنفس والقلب، كما يقول (ص: 49)، ومن هذه الأحداث، ضياع فلسطين وسيناء، (ص: 57)، هزيمة مصر أمام إسرائيل (ص: 58-59)، فساد العملية الإنتخابية التي شارك فيها، (ص: 91)، ويتوقف الكاتب عند تأثره الصحي بهذه الأحداث، ومطاردة الشيخوخة، النفسية والفكرية لكيانه، غير أنه لا يتنازل عن موقفه الذي يبدو مبدئيا، من هذه الشيخوخة، التي يصفها بالظالمة، بالرغم من كل الصعاب والمطبات التي صادفها. نستطيع أن نفهم، أن الأستاذ عبد الكريم غلاب، يدعونا بقوة إلى مغالبة كل دواعي الشيخوخة التي تطوقنا، في مجتمعات تشيخ قبل الأوان، وتتسلل إليها دواعي الموت والعجز من كل مكان. إن الشيخوخة بالنسبة إلى الكاتب تشكل بداية الحياة، لا بداية الموت (ص:164)، يقول مؤكدا هذا المعنى: (لا أعتبرها بداية الموت، إلا عند الذين يريدون منها أن تكون كذلك، تستجيب لهم لأنهم نفسيا يرفضون الحياة، ويعانقون الموت قبل أن يعانقهم) (ص: 165)، ويردد مع الأستاذ علال الفاسي قوله وإصراره:(لن أموت قبل أن أموت) (ص:168)، ويجمل الأستاذ غلاب كلامه، بوصف الشيخوخة بكونها (أجمل مرحلة في الحياة) (ص: 173)، ويعاتب الذين (لايخططون لشيخوختهم، ويكتفون بانتظار الموت) (ص:178)، وينتقد بعض التصرفات المرتبطة عند الكثيرين بمرحلة الشيخوخة، كاحتجاز القبور، وبناء المساجد، وكأن الشيخوخة تعني الموت، ليس إلا، الشيء الذي يرفضه الكاتب (ص:178)، مؤكدا في النهاية أن الشيخوخة هي (أسعد مرحلة من مراحل الحياة... وأن الذين يكرهون الشيخوخة لا يعرفون كيف ينعمون بمفاتنها... ويصفها في الختام، بزهرة العمر (ص:180) .

1- (الشيخوخة الظالمة) ذ.عبد الكريم غلاب، مطبعة النجاح الجديدة - ط 1 - الدار البيضاء .